

سلطنة عمان
وزارة التراث القومي والثقافة

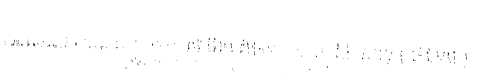
عمان وشرق أفريقية

تأليف: أحمد حمود المعمري
ترجمة: محمد أمين عبدالله

سلطنة عمان
وزارة التراث القومي والثقافة



تراثنا



عمان وشرق إفريقية

تأليف
أحمد حمود المعمري

ترجمة
محمد أمين عبد الله

تعريف

اطلع كثير من أصدقائى على مخطوط هذا الكتاب من قبل أن يأخذ شكله النهائى ، وقد قدموا إلى بعضاً من مقترحاتهم وآرائهم القيمة ، وإنى لهم مدين بذلك :

وأشكر أستاذى عزت عزيز عبده بوزارة الإعلام بدولة الإمارات العربية المتحدة لنصائحه المفيدة الخاصة بالأسلوب ؛ وصديقى عبد المنعم المجاينى بمركز الأبحاث الزراعية فى عمان على مقترحاته الطيبة التى بدونها ما كان لهذا الكتاب أن يرى النور .

وأخص بالشكر الكثير السيدة بفية البوسعيدى ، فقد كتبت على الآلة الكاتبة النصف الثانى من النسخة الخطية الأولى للكتاب ، وكذا السيدة إيلين بالمر ، التى نسخت مخطوط الكتاب كله بعد إجراء بعض التعديلات عليه .

وفى النهاية أشكر ابنتى ماجدة ، وقد سألت أمها يوماً ، فقالت ، ياأماه : ما الذى سيفعله أبى لو أن الورق نفذ من العالم .

مايو ١٩٧٩ **أحمد حمود المعمرى**

نيو دلهى

تقديم

تشغل سلطنة عمان معظم الجزء الشرقى من الجزيرة العربية ، وتحدها مياه المحيط الهندى والخليج من جانبين ، وتحيط بها رمال الصحراء من جانب آخر .

وعمان ليست أرضاً قاحلة كباقى بعض أجزاء الجزيرة العربية ، ففيها مصادر للمياه ، وإن كانت متواضعة ، على جانبى الجبل الأخضر ، وقد عمل الشعب العمانى ، عبر أجيال عديدة ، على زيادة الكميات المتاحة من المياه عن طريق أنظمة دقيقة للرى ، ولهذا فإن حوالى ثلثى السكان يعتمدون على الزراعة ، التى كانت المصدر الرئيسى لمعيشتهم طوال قرون عديدة .

ويعتبر الموقع الجغرافى المصدر الثانى الرئيسى من مصادر تشكيل التاريخ العمانى ، فالشريط الساحلى لعمان يمتد لمسافة ١٧٠٠ كيلو متر على المحيط الهندى ، وتمر على طول هذا الساحل السفن المتجهة من الهند إلى إفريقية ، ومن الهند إلى الخليج ، أو المتجهة إلى الهند .

ولم يكن عجباً أن تلعب الرحلات البحرية دوراً كبيراً فى ماضى عمان ، ولم يكن البحارة الرحالة العمانيون طوال ما لا يقل عن خمسة آلاف عام ، بغرباء على الهند ، والخليج ، وشرقى إفريقية .

ونظراً لكون عمان ركناً خصباً فى الجزيرة العربية ، رغم أن الصحراء تفصلها عن معظم شبه الجزيرة العربية ، فقد كانت تربطها صلات بالشرق والغرب ، وكان لها تاريخ عريق . وقد تطورت بها ثقافة فريدة تأثرت بأرجاء عديدة ، لكن جذورها ضاربة فى تاريخ الجزيرة العربية .

ويعود استيطان عمان إلى العصر الحجرى . كما ترجع الدلائل الأولى للنشاط الإنسانى فى السلطنة إلى ٣٠ ألف عام قبل الميلاد على الأقل . ومنذ

عشرة آلاف عام ، توفرت المياه فيما يعرف الآن بالأطراف (الحواف) الصحراوية لعمان . وقد خلف الصيادون الذين استوطنوها آثاراً تدل عليهم ، خاصة الأدوات الحجرية الدقيقة الصنع التى تصنف ضمن أكثر الأدوات تطوراً مما كان معروفاً عند إنسان ما قبل التاريخ .

ويعتبر أول دليل على اشتغال العمانيين بالبحر ، قديماً قدم الألف عام الثالث قبل الميلاد ، ففى ذلك الوقت (تبعاً للكتابات المسمارية) تعودت سفن ماجان (عمان) أن ترسو بانتظام فى أور « Ur »، وفى أجزاء أخرى من بلاد ما بين النهرين السومرية ، تحمل النحاس ، والديوريت (صخر بركانى متبلور) ، والمرمر ، والبصل ، والأخشاب .

وكان أقدم إسم مدون لعمان — حوالى ثلاثة آلاف عام بعد ذلك — هو « مزون » ، ولا يوجد شك لدى الباحثين فى أن « سفن ماجان » ، قد وجدت فى المنطقة الواقعة عند مدخل الخليج ، وأن عمان كانت مركزاً لها . وتعتبر رحلات هذه السفن أقدم تجارة بحرية لمسافات طويلة فى تاريخ العالم .

وما زال التاريخ العمانى القديم فى أولى مراحله — والذى يحوطه الغموض — يمثل تحدياً للمراقب المدقق . فمن هم الناس الذين بنوا المقابر الحجرية المتراصة كخلايا النحل ؟ . ومن هم الذين تركوا هذه القطع الحجرية التى عثر عليها فى الخلجان الصغيرة على طول الساحل ؟ . ومن هم الذين استخدموا الأدوات المصنوعة من الحجارة التى عثر عليها فى رأس الحمراء . وأى نوع من الحضارة تلك التى اعتمدت على هذه القنوات والأنظمة القديمة للرى ؟ .

إن بقايا الأوانى الخزفية التى عثر عليها قرب مسقط ، وقرب السيب فى وادى الجزى ، وقرب عبرى ، توضح أن عمان كانت جزءاً من

حضارة امتدت عبر فارس ، وإلى ما يعرف الآن بأفغانستان، وبلوشستان ، وغرب باكستان ، فى الألف عام الثالث قبل الميلاد .

ولقد عثر فى عام ١٩٧١م على خنجر من البرونز قرب عبرى تم التوصل بعد فحصه إلى أنه صنع فى القرن الثانى قبل الميلاد ، وأنه فارسى الأصل .

وتتحدث أسطورة تحيط باسم مزون إلى ما يشير إلى أن جزءاً من عمان كان ضمن حضارة ذات أصول فارسية .

ومما لا شك فيه أن أنظمة الرى فى شمال ووسط عمان ترجع إلى أصل فارسى ، يعود تاريخه على الأرجح إلى عصر الإمبراطورية التى أسسها سايروس الأكبر .

وإن القرب الوثيق لعمان من جنوب إيران يجعل من المنطقى تصور أن عمان كانت لها روابط تاريخية مع فارس .

وما زالت عمان تطوى أسرار ماضيها ، ولولا تلك السنوات من العمل الميدانى الدؤوب والصبور فى التنقيب عن الآثار ، وإلى أن يتم تحليل نتائج هذا العمل ، فلن يكون أمامنا سوى الاعتماد على ما تم العثور عليه حتى الآن ، نتيجة عمليات التنقيب .

ولقد كانت ظفار - المنطقة الجنوبية - حتى نهاية الألف عام الأولى قبل الميلاد ، أهم مركز للنشاط التجارى . وأهم منتجاتها البخور ، وكذلك اللبان الذى كانت له قيمة عالية فى العصور القديمة كعقار ، ودواء ذى رائحة عطرية .

وطالما كانت ظفار - تنتج أحسن البخور - وكانت أهم المناطق المصدرة له . ومن هناك يصدر إما بحراً من ميناء سمهرام والذى يعرفه الكتاب القدامى باسم موسيبا ، وما زالت أطلاله باقية بالقرب من صلالة ، أو عن طريق الجمال عبر حضرموت وعبر الصحراء العربية .

وكانت ظفار تشكل جزءاً من الثقافة القديمة لجنوب الجزيرة العربية، وهي ثقافة سبأ وحمير، ولا يعرف الكثير عن هذا الشعب، حيث لم تجر حفريات أثرية كثيرة بهذه المنطقة. وتؤكد تقديرات اليونان والرومان الأهمية التجارية لجنوب الجزيرة العربية والتي نشأت على أساس تجارة ظفارة في البخور. ولقد ذهب الجغرافي «بليني» إلى حد وصف سكان جنوب الجزيرة العربية في ذلك الحين، بأنهم أغنى شعب في العالم.

وإن ما نحن متأكدون منه الآن هو وصول العرب إلى عمان. ففي القرن الثاني قبل الميلاد وصلت إليها موجات من القبائل المهاجرة من المنطقة المحيطة بسد مأرب في اليمن.

وأكبر مجموعتين من القبائل العربية التي دخلت عمان في هذا الوقت، قد عرفت أولاهما باليمنيين، وقد جاءت من جنوب غرب الجزيرة العربية مباشرة، وعرفت الثانية باسم نزار، وقد جاءت عن طريق نجد.

وتقول الروايات، إن إحدى هذه الموجات كانت بقيادة نصر بن الأزد، والثانية يقودها أبناء مالك بن فهم، وهو أيضا من نسل الأزد.

ونحن نعرف أن مالك بن فهم نفسه هو الذي قاد موجة الهجرة الأولى من العرب إلى عمان. ويقال إن اسم عمان مشتق من عمان بن قحطان، شقيق يمن بن قحطان. ويقول آخرون أنه كانت توجد قرب مأرب قرية تسمى عمان. وعندما وصل العرب إلى عمان اكتشفوا مكاناً مشابهاً للمكان الذي يحمل اسم عمان والموجود في مأرب.

وعلى أية حال، فقد لحقت بهؤلاء أعداد متزايدة عبر القرون، منذ بداية سد مأرب وحتى انهياره في العقود الأخيرة من القرن السادس بعد الميلاد.

ولم تكن الهجرات رحيلا مفاجئاً من وطن قديم يعقبه استيطان فوري

لوطن جديد . ولكنها كانت عملية انتقال لجيل يعقبه جيل ، حيث تنتقل قبيلة رغماً عنها من عالمها الذى أصابه الدمار ، فأصبحت فيه لا تجد به ما يغريها على البقاء، فتمضى موسماً أو إثنين حيث تجلب العواصف الممطرة الحياة إلى الأرض الجافة ، وحتى تصل فى النهاية إلى أرض خصبة ، تجرى فيها مجارى الماء ، وتنمو فيها الأشجار ، وتنتشر فيها المزارع التى تمتلىء بأشجار الفاكهة من كل الأنواع .

ولم تصبح هذه القبائل العربية سكانا مقيمين إقامة دائمة فى عمان إلا بعد دخولها الإسلام وطرد الفرس منها .

فمن الطبيعى أن عمان كانت مأهولة بالسكان عندما وصل العرب إليها ، ولنا أن نتوقع أن العرب المهاجرين قد جاءوا إليها مثل أسراب الجراد القادم من الصحراء . فالجوع والإصرار دفعهم إلى أخذ ما يحتاجونه ، حتى لو قاتلوا من أجل ذلك إذا دعت الضرورة .

ولقد استوطن العرب أساساً قلب عمان ، فى الجبل الأخضر ، والوادى المحيط به الذى تجرى فيه المياه ، وفى الشرقية . ولم يكن وجودهم على الساحل كبيراً . وكان سكان الساحل خاضعين لملك من أصل فارسى هو ملك هرمز ، بينما كان سكان الجبال متمسكين باستقلالهم .

وكانت عمان من أولى الدول التى اعتنقت الإسلام فى عهد النبى محمد عليه الصلاة والسلام . كما كان التجار العمانيون طليعة الذين قاموا بالتجارة بين عواصم الصين الإمبراطورية وبين عواصم الإسلام . وأول عربى يبحر مسافة ٧٠٠٠ كيلو متر من خليج كانتون ثم يعود ، هو أبو عبيدة ، وهو عمانى ، وقد أبحر إليها فى القرن الثامن بعد الميلاد ، أى قبل حوالى ٨٠٠ عام من اكتشاف كولومبوس لأمريكا . وكانت جرأة أبو عبيدة – مثله مثل كولومبوس – خطوة دفعت كثيرين من بنى وطنه لتقليده ، وهم أولئك الذين سيطروا على طرق التجارة إلى شرقى إفريقية والهند ، وما جاورها .

وفى حوالى القرن العاشر كانت العاصمة العمانية — صحار — من أهم الموانى البحرية المطلة على المحيط الهندى . ووصفها جغرافى معاصر لتلك الفترة، هو الاصطخرى ، بأكثر مدن عمان ثروة وسكاناً . وأضاف قائلا : إنه من غير الممكن أن تجد على شاطئ البحر الفارسى أو فى كل أرض الإسلام مدينة أكثر ثراء بالمبانى الجميلة أو البضائع الأجنبية من صحار . وقد تهدمت هذه المبانى الكبيرة فى صحار منذ وقت طويل ، لكن قلهات — وهو الميناء العمانى الذى حل محل صحار ، قد بقيت منه آثار تشهد على عظمته القديمة .

وقد اشتهر العمانيون فى العصور الوسطى بأنهم بحارة وتجار .

وأنجبت الطائفة الإباضية — وهى العقيدة السائدة فى عمان — عدداً من الزعماء الدينيين البارزين ، ولعب العمانيون ، الذين أقاموا فى البصرة بالعراق لفترة أثناء القرون الأولى للإسلام ، دوراً أساسياً بين النخبة المثقفة فى العالم الإسلامى . ومن بينهم الشيخ الخليل بن أحمد ، الذى كتب أول قاموس عربى .

وفى السنوات الأولى للقرن السادس عشر عندما ظهرت سفن أوربية — وهى السفن البرتغالية — فى المياه العمانية ، فإن القوة البحرية العمانية أصيبت بتدهور خطير . وسقطت المدن الساحلية أمام الأسطول البرتغالى ، رغم أنهم لم يتوغلوا إلى داخل عمان ، وظلت عدة مدن ساحلية ؛ منها مسقط ، فى يد البرتغاليين طوال ١٥٠ عاماً .

وفى عام ١٦٢٢م عندما طرد البرتغاليون من هرمز — وهى قاعدتهم فى مدخل الخليج — أصبحت مسقط معقلهم الأساسى فى الشرق الأدنى . وكانت دفاعات مسقط مدعمة تدعيما قوياً وتتكون من قلعتين كبيرتين ، وسور به أبراج للمدافع ، وكثير من التحصينات الفرعية .

ثم واجهت قوة البرتغاليين الاختبار عندما اتحدت ضدهم قوات القبائل فى داخل عمان على يد الأئمة من أسرة اليعاربة .

وفى عام ١٦٥٠ طرد البرتغاليون من مسقط . وكان طردهم على يد الحاكم اليعربى سلطان بن سيف ، إيذاناً بفترة ليس لها مثيل من القوة والرخاء لعمان . فلقد أغار الأسطول العمانى خلال الخمسين عاماً التالية على الأراضى التى يسيطر عليها البرتغاليون على طول السواحل الهندية والأفريقية .واستطاعوا قبل نهاية القرن أن يطردوا البرتغاليين من شرقى إفريقية ، وإن يضعوا الأساس للوجود العمانى القوى هناك والذى استمر طوال ٢٠٠ عاما . وواجه الأسطول البريطانى خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر صعوبة فى دخول مياه المحيط الهندى ، حيث كانت عمان القوة البحرية المسيطرة فى غرب المحيط الهندى .

وبلغ الرخاء التجارى العمانى ذروته فى أول عهد أسرة البوسعيد ، الأسرة الحاكمة حالياً . وكان مؤسس الأسرة الأمام أحمد بن سعيد قد انتخب إماماً عام ١٧٤٩م ، بعد أن قاتل ضد الغزو الفارسى لعمان . وقد عمل على رفع قدرة الأسطول ، واستغل السفن الحربية فى نقل التجارة فى الفترات التى تتوقف فيها الحروب . وفى عهود أبناء الإمام أحمد ، نقل مقر الحكومة من مدينة الرستاق فى الداخل إلى ميناء مسقط ، وهى خطوة ترمز إلى توسع النشاط التجارى لعمان .

وبعد وفاة الإمام أحمد أعظم الحكام البوسعيديين الأولين ، تولى السيد سعيد بن سلطان ، وقد حكم عمان من عام ١٨٠٧ إلى عام ١٨٥٦ . وفى عهده تجاوزت الممتلكات العمانية حدود التوقعات ، فشملت زنجبار ، وأجزاء من شرقى إفريقية ، ومن جنوبى إيران ، وبلوشستان . وازدهرت التجارة خاصة مع شرقى إفريقية ، وتمتعت مسقط بأمن أكثر مما توافر لجيرانها ، وتطورت إلى سوق هام ليس بالنسبة لعمان وحدها ، بل أيضاً بالنسبة لمنطقة الخليج ككل . واهتم السيد سعيد بتطوير التجارة فى كل ممتلكاته .

وأدخل صناعة القرنفل إلى زنجبار بنجاح وصل إلى أن مزارع القرنفل

كانت قبل نهاية عهده مصدراً لثلث الدخل الحكومى فى زنجبار . واليوم تنتج زنجبار ٩٠٪ من إنتاج العالم من القرنفل . وكانت الآفاق التجارية للسيد سعيد تمتد إلى مستوى العالم ، وفى عام ١٨٤٠ أرسل مبعوثه أحمد ابن نعمان بسفينة محملة بالسلع التجارية إلى الجمهورية الناشئة للولايات المتحدة الأمريكية . وكانت عمان فى عام ١٨٤٠ هى أول دولة عربية توفد ممثلا دبلوماسياً إلى الولايات المتحدة .

وبعد وفاة السيد سعيد قسمت الإمبراطورية البحرية التى حكمها . فقد تولى ابنه السيد ماجد وخلفاؤه حكم الجزء الواقع فى شرقى إفريقية ، بينما خضعت عمان لحكم أكبر أبنائه السيد ثوينى . وقد توافق مع تقسيم السلطنة هبوط حاد فى الظروف التجارية . فتقلص إلى حد كبير النفوذ البحرى العمانى الذى يعتمد على الملاحة ، وذلك نتيجة لظهور الملاحة المنتظمة بالسفن التجارية فى ثمانينات القرن التاسع عشر ، ونتيجة لفتح قناة السويس عام ١٨٦٩ . وأدى اتساع الاستعمار الأوربى ومد الحماية البريطانية عبر المحيط الهندى ، إلى الحد بدرجة كبيرة من مصالح ومكاسب عمان فى الميادين الدولية .

وأدى تآكل أسس الرخاء القديم لعمان ، إلى فترة من المتاعب السياسية للسلطنة . وتسبب التنافس بين الإمام فى داخل عمان ، والسلطان فى المنطقة الساحلية إلى الحد من دخل الحكومة ، وسببت النشاطات الشيوعية ضد الحكومة آلاماً ومتاعب للشعب العمانى .

وبدأ التاريخ الحديث لعمان فى عام ١٩٦٧ مع أول شحنة بترول تصدر للخارج ، وهو ما وفر للبلاد مصدراً كبيراً للدخل تحتاجه للتنمية . وبدأ سلطان عمان وقتئذ السيد سعيد بن تيمور ، فى تنفيذ خطط لبعض مشروعات التنمية مستخدماً دخل البترول ، ولكنه لم يتحرك بالسرعة الكافية للاستجابة لمطالب الشعب بالنسبة التعليم ، والعلاج الطبى ، وغيره

من الخدمات . وعقب انتقال السلطة إلى جلالة السلطان قابوس في يوليو ١٩٧٠ ، بدأ عهد جديد ومستمر من التنمية والرخاء السريعين .

وكما يشير عنوان الكتاب « عمان وشرق إفريقية » فإن الموضوع الرئيسى هو ما حققه عمان لشرق إفريقية فى مجالات الثقافة ، والاقتصاد ، والدين ، والتقاليد ، وقد نوقشت هذه الموضوعات لارتباطها بما كان يجرى فى عمان ذاتها .

وحتى نعرف عمان، فان القصة تبدأ بهجرة العرب من اليمن بعد الفيضانات التى أعقبت انهيار سد مأرب ، وتنتهى بالوضع الحالى لسلطنة عمان . وحيث أن الكتاب يناقش الأحداث التاريخية ، فلم يذكر إلا القليل عن الأمور الراهنة فى السلطنة ، رغم الإشارة إلى بعض العناصر التى تعمل ضد الرخاء ، والتقاليد والثقافة المتميزة للبلاد .

ولقد استفدت عند التحضير لهذا الكتاب من أعمال كثير من المؤلفين ، لكن مسئولية محتوياته تقع كاملة على عاتقى .

مارس ١٩٧٩ أحمد حمود المعمرى

(١)

لايوجد تاريخ مدون نعتمد عليه فى الاستدلال على وجود مستوطنين عمانيين قبل وصول العرب إلى هذه الأرض ، ولكن من المعتقد ، طبقاً للروايات التى يتناقلها الناس واحداً عن آخر ، أن إحدى العشائر ، ويطلق عليها « البياسرة » قد تكون أول من سكن عمان ، ونشأ فيها الشعب الذى كان يستوطن أرض عمان قبل وصول العرب إليها .

ووفق الاعتقاد المعاصر فان البياسرة إحدى الجماعات التى تعرضت لهزيمة فى الحرب ، بيد أن الرأى الأكثر تداولا بين أفراد الشعب العمانى هو أن البياسرة عشيرة رفضت الدخول فى الإسلام ، فكان من نتيجة ذلك أن وقعوا أسرى حرب ، غير أن هذا الرأى لا يمكن قبوله على علاته ، لأن الإسلام دخل عمان بعد سنوات من توطن العرب فيها ، ولأن العمانيين قد اعتنقوا دين الإسلام سلماً بمحض إرادتهم ، فليس هناك أى دليل على أن البياسرة كانوا من أسرى الحرب عند دخول الإسلام إلى عمان . والبياسرة منتشرون الآن فى أجزاء مختلفة من البلاد خاصة فى الشمال ، وعلى طول الساحل ، ويعيشون فى ظل قبائل مختلفة .

وهناك عشيرة أخرى أصغر من البياسرة ، هى عشيرة شهوم Shihum وتعيش فى الإقليم الشمالى من عمان ، ومعظم أفرادها من الصيادين والرعاة ، وهم يتحدثون إلى جانب اللغة العربية اللغة الفارسية ، وتبدو بشرتهم أكثر سمرة من معظم العرب ، ومن المحتمل أن يكونوا هم أصل سكان عمان الشمالية ، وقد دفعتهم إلى جبال الشمال الهجمات المتتابعة للغزاة :

وثمة عشيرة ثالثة أصغر ، وهى الزاتوت ، وأفرادها أشبه بالغجر ، ولهم لغتهم الخاصة ، ومن عاداتهم ، أنهم لا يتزوجون من غير نساء عشيرتهم إلا نادراً .

وفى الإقليم الجنوبى من سلطنة عمان ، ظفار ، يختلف الرعويون ، سكان جبال القرا ، فهم قليلون ، ولهم مظهر وزى مختلف عن باقى العمانيين ، ويتكلمون لغة ، تسمى الجبالية ، إلى جانب اللغة العربية ، ويشار إليهم عادة ببيت كثير ، والمهرة .

وفى منطقة العاصمة والمدن الساحلية الأخرى يوجد كثيرون من أصل إفريقى ، جاء أسلافهم وعاشوا فى عمان عندما كانت علاقة عمان قوية بساحل شرقى إفريقية ، وبخاصة زنجبار ، وأما الذين هم من أصل هندى ، ويعرفون باسم اللواتيين ، فقد سكنوا مدينة مطرح التجارية ، وعاشوا فى حى مغلق عليهم ، وما زالوا يحتفظون بلغتهم .

وأكبر الطوائف العمانية غير العربية طائفة البلوش ، وقد عاشوا فى مدينتى مسقط ومطرح ، وعلى طول ساحل الباطنة ، وجاءوا من ساحل مكران فى بلوشستان وجوادر ، الذى ظل جزءاً من عمان حتى عام ١٩٥٨م

وهناك قبيلة أخرى ، تسمى بنى بلوش ، وأفرادها من نسل قوة من الجنود ، جندت فى مكران عام ١٧٣٦ ، وقد اندمجوا الآن فى المجتمع العمانى ويعيشون كقبيلة عربية فى الظاهرة .

وتوجد بين طائفة العرب مائتا قبيلة ، ولا يدخل فى مجال هذا الكتاب تفصيل القبائل العربية التى تعيش فى عمان ، ويكفى أن نذكر ، أن عمان مجتمع قبلى ، غير أن القوة القبلية الآن أقل مما كانت عليه فى الماضى .

وهناك حقيقه هامة تستحق الذكر ، وهى ، أن العمانيين ، أياً كانوا ، بدون استثناء ، يتميزون بكرم الضيافه البالغ ، وتقضى تقاليدهم فى الضيافة ألا يأكل المضيف حتى يأكل الضيف ويشبع .

(٢)

عصر ما قبل العرب

استوطن عمان كثير من الأجانب فى الماضى ، لكن الفرس من بينهم - بصفة خاصة . قد لعبوا دوراً ملموساً فى تاريخ و اقتصاد البلاد . فقد أقاموا على طول الساحل ، ومارسوا سلطتهم من مدينة صحار . العاصمة الساحلية حينئذ . وتعتبر الإفلاج أهم ما خلفوه وراءهم من تراث فى عمان . وهى نوع من أنظمة الرى يرجع إلى ألفى عام . ووسيلة للحصول على الماء للرى بإنشاء قنوات جوفية تحت الأرض وشق طريق من هذه القنوات إلى المنطقة التى يراد ريها بأن يخترق القناة على امتدادها ممرات رأسية عند الحدود الفاصلة ، بطول يتراوح بين ٢٠ و ٥٠ متراً . ثم تتصل قيعان هذه الممرات بقناة طولية تتدفق منها المياه منحدرة برفق لتصل إلى سطح أقرب مكان يتم ريه .

وأهم مظهر لهذا النظام فى عمان هو إمكانية الاعتماد الكامل عليه ، حتى فى فترات الجفاف الطويلة فلا يتوقف تدفق المياه فى الإفلاج ، وإن كان يتضاءل خلال تلك الفترات ويعتقد أن هذا النظام قد ظهر فى فارس أثناء حكم أسرة أرخميدس Achaemanion (منذ القرن الرابع أو السادس قبل الميلاد) ، ثم عمل الساسانيون على تحسينه فى الفترة الواقعة بين القرن الثالث والقرن الرابع الميلادى ، ونقله الفرس إلى عمان منذ ألفى عام على الأقل. وكان نظام الرأى بالإفلاج مصدر ازدهار للزراعة فى عمان .

وكشفت عمليات التنقيب عن الآثار ، عن أن عمان كانت جزءاً من حضارة تمتد عبر فارس إلى البلاد التى تعرف الآن بأفغانستان ، وبلوخستان ، وغرب باكستان فى الألف عام الثالث قبل الميلاد . وتدل مجموعة المقابر الحجرية ، وقطع شظايا الأوانى والأوعية الفخارية ، على طول الساحل ،

وكذلك الأدوات المصنوعة من الحجارة ، وقطع الأوانى الخزفية وغيرها ، على أن الحلقات الأولى من تاريخ عمان كانت عامرة بالحياة .

ويدل أحد الخناجر المصنوع من البرونز والذى عثر عليه عام ١٩٧١ فى بلدة عبرى فى داخل عمان ، أنه فارسى الأصل ومصنوع فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد . وتقول الراويات التى تحدثت عن اسم «مزون» أن هذا الاسم يشير إلى جزء من عمان كان ضمن حضارة تنتمى إلى أصول فارسية .

وقد كان بين عمان وفارس جوار وثيق ،وأنه لمن المنطقى وجود روابط تاريخية قديمة بين البلدين .

(٣)

مجئ العرب إلى عمان

تقول إحدى الروايات القديمة ، إن أول عربى جاء إلى عمان قادماً من اليمن هو عمان بن قحطان أخو يمن بن قحطان ، ومن ذلك الشخص استمدت عمان اسمها ، وهناك قصة أخرى تقول ، إنه كانت توجد فى مأرب باليمن قرية تسمى عمان ، وعندما وصل العرب إلى عمان وجدوا قرية مشابهة لها ، فأسموها عمان .

والحقيقة المؤكدة هى أن موجات مختلفة من الهجرات من رجال القبائل التى كانت تقيم فى المنطقة المحيطة بسد مأرب فى اليمن ، قد نزحت إلى عمان واستقرت بها فى القرن الثانى قبل الميلاد .

والرواية الأكثر قبولا تقول ، إن إحدى هذه الموجات كان يقودها نصر بن الأزد ، والأخرى يقودها مالك بن فهم الأزدى .

ويقال بالنسبة لهجرة مالك بن فهم الأزدى وجماعته أنه كان ضحية اتهام وهو فى وطنه الأم ، وجهه إليه أحد رجال قبيلته ، بأن ابن أخيه قد قتل كلبه وقد اعتبر مالك هذا الاتهام إهانة لاتحتمل ، فقرر مغادرة البلاد .

والسبب الأكثر اتفاقاً مع المنطق هو أن تشقق سد مأرب قد أرغم أناساً كثيرين على مغادرة وطنهم والتجوال بحثاً عن مستقر جديد . وقد لحق بهؤلاء المهاجرين الأوائل أعداد متزايدة من المهاجرين عبر القرون . عندما زادت التشققات فى سد مأرب حتى انهار تماماً فى العقود الأخيرة من القرن السادس بعد الميلاد :

ولا يوجد ما يدعو للشك فى أن الهجرات لم تكن رحيلا مفاجئاً من وطن قديم يعقبه استيطان فورى فى وطن جديد . ولكنه كان عملية

مستمرة خلال جيل بعد آخر ، وينتقل المهاجرون رغماً عنهم من وطن أصابه الدمار ، ويمرون بقفار جرداء بها قليل من أشجار الشوك ، وقليل من الطعام لا يقيم أودهم ، ويقاتلون أناساً يستوطنون هذه المناطق التى تقع فى طريقهم إلى موقع هجرتهم النهائية ، حتى وصلوا أخيراً إلى أرض خصبة ، كثيرة الأشجار ، والمزارع ، وحدائق النخيل ، وأشجار الفاكهة من مختلف الأنواع : هى عمان .

ولم يكن وصول العرب إلى عمان يعنى السلام أو الاستقرار لهم ، لأنه كان فى عمان بالفعل شعب يقطنها . وكان المجتمع الذى وجده العرب فى عمان هو على الأرجح مجموعات من المجتمعات الريفية المتمتعة بالرخاء ، يضمها نظام إقطاعى أرستقراطى ، وتعيش على اقتصاد زراعى منظم يعتمد على نظام الرى الذى أدخله الفرس .

وجاءت الهجرات العربية إلى هذه المجتمعات ، مثل أسراب الجراد القادم من الصحراء . وبدافع من الجوع والإصرار ، فمدوا أيديهم إلى كل ما صادفوه . بل ولجأوا إلى العنف عند الضرورة .

واستمر هذا الحال ، حتى أصبح العرب القوة المسيطرة فى ذلك المجتمع ، تعززهم موجات الهجرات الجديدة التى لحقت بهم .

ويعتقد المؤرخون العمانيون أن مالك بن فهم الأزدى هو مؤسس عمان ، وأنه أقام خيامه قرب نزوى عند وصوله ، وفى ذلك الوقت كانت البلاد تحت السيطرة الأسمية لحاكم فارسى كان يحكم من عاصمته فى صحار . وعندما استقر مالك بن فهم واستوطن هو وقومه ، بعث برسالة إلى الحاكم الفارسى يقول له فيها : لقد استقر الرأى على الإقامة فى إقليم من عمان . وأنه لا ينوى إخراج الفرس منها . أما إذا هاجموه ؛ فإنه لا بد وأن يهزمهم ويطردهم من البلاد .

ورفض الفرس — وهو ما كان متوقعاً — ذلك التهديد من خليط همجى

من العرب القادمين من الصحراء . واستعدوا للحرب ، وانطلقوا من صحار عبر وادى الجزى بقوة كبيرة تضم بعض الفيلة ، واستعد مالك لمواجهة التحدى .

وتقدم الفرس الذين قدر عددهم بثلاثة أو أربعة آلاف نحو سلوت قرب نزوى ، حيث واجههم مالك بن.فهم بستة آلاف رجل، منهم الفان من الفرسان يقودهم إبنه هناة،وتولى مالك قيادة جيشه فوق حصان أرقط ، مرتديا رداء أحمر اللون ، وشالا أصفر ملفوفاً حـول خوزته وصاح بجنوده » تقدموا معى نحو كل هذه الفيلة لنهاجمها «. وهاجموها برماحهم وسيوفهم . فطلب الفرس هدنة . وعادوا إلى صحار . وعاد مالك إلى قلهات .

وعندما بلغ نبأ الهزيمة ملك فارس ، استاء وبعث بتعزيزات . وعلم مالك بذلك ، فأرسل رسالة أخرى إلى الفرس يبلغهم أنه سيطردهم من البلاد إذا لم يرحلوا عنها . وعندما رفضوا ذلك زحف عليهم وهزمهم . وكانت هذه هى نهاية الفرس فى عمان ، وبعدها بدأ العمانيون فترة من الازدهار وتطوير بلادهم الجديدة ، ودام حكم مالك سبعين عاماً ومات وعمره ١٢٠ عاماً .

ويعتبره العمانيون واليمنيون الذين من أصل أزدى جدهم الأكبر . ولا يزال يوجد فى عمان قرية تسمى منح ، وفلج مهجور ، يعتقد أن مالك هو الذى بناه .

والمعتقد أن عرب عمان ينتمون إلى عائلتين رئيسيتين هما : القحطانيون والعدنانيون . وينتمى الأزد المعروفون باليمانيين إلى عائلة قحطان ، بينما ينتمى النزاريون إلى عائلة عدنان .

وقد استقرت العائلتان فى عمان . ثم اكتسب كل منها ألقاباً أخرى ، وأصبح القحطانيون يعرفون باسم بنى رواحة ،والعدنانيون باسم بنى ريام.

ومن المثير للاهتمام أنه توجد فى إحدى المدن العمانية القديمة ، وهى أزكى ، منطقتان تسمى إحداهما اليمن ، والأخرى نزار .

وقد دخل العدنانيون عمان فى تاريخ متأخر قادمين من الجزيرة العربية ، واستوطنوا الجزء الشمالى من البلاد .

وعمان من أول البلاد التى اعتنقت الإسلام فى حياة النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وكان ذلك فى عام ٦٣٠ ميلادية عندما وصل عمرو بن العاص إلى عمان كمبعوث عن النبى محمد يطلب دخول العمانيين فى الإسلام . وكان الفرس فى ذلك الوقت قد استعادوا السيطرة على المناطق الساحلية من عمان وحتى البحرين و المنطقة الساحلية الممتدة إلى اليمن . وأصبحت صحار العاصمة لهم مرة أخرى . وظلت السيطرة للأزد فى داخل عمان .

وحوالى عام ٦٨٠ هـ تعرضت عمان لغزوات جديدة من العراق وفارس تحت قيادة الحجاج ، الحاكم المسلم للعراق ، وظلت عمان سبعين عاماً أو نحو ذلك تحكم من الناحية النظرية على الأقل بحاكم يعينه حاكم العراق . ومع نهاية تلك الفترة تحالف أحد العمانيين — وكان قد عين حاكماً ثم عزل — مع الطائفة الأباضية واستطاع أن يفرض سيطرته تدريجياً على البلاد . وفى حوالى عام ٧٥٠ ميلادية انتخب الجلندى بن مسعود أول إمام فى عمان .

والأباضية ، هى طائفة مسلمة تؤمن بالديموقراطية الكاملة فى اختيار الخليفة — على أساس أهليته ونزاهته والعمانيون — كإباضيين — لا يعتبرون أنفسهم خوارج بإيمانهم بالديموقراطية فى اختيار قائدهم . وهم يعتبرون أنفسهم مسلمين حقيقيين ، وقائدهم يعرف بالإمام » وهو ما يعنى ببساطة الشخص القدوة . ويمنحه شعبه ولاءه وطاعته بحيث يقودهم ويرشدهم ويدافع عنهم ويحميهم من أعدائهم ، ويلتزم بالقرآن وتعاليم الرسول عليه الصلاة والسلام .

وكل هـذه القوانين تعتبر مقدسة ، ولا يمكن بالتالى تغييرها أو معارضتها .

ويتم اختيار الإمام – مبدئياً – بواسطة مجموعة صغيرة من العلماء كبار السن ، ولا بد ، بعد ذلك ، من موافقة الشعب ، على انتخاب الإمام من خلال التصويت . ولا يمكن انتخاب الإمام المرشح ، بدون الموافقة العامة عليه .

وقد أصبحت الإباضية عقيدة تجمع حولها العمانيون فى كفاحهم من أجل الاستقلال .

ومنذ انتخاب أول إمام ، تعرضت عمان لأكثر من عشر غزوات متتابعة على مدى مائتى عام . وكان هدف كل هجوم هو تدمير المجتمع العمانى ، ومن المرجح على ما يبدو أن دافع الغزاة كان بسبب تجاهل العمانيين للالتزام بدفع الزكاة للخليفة . ولقد فشل كل غزو أمام المقاومة العنيفة من العمانيين دفاعاً عن عقيدتهم وأسلوب حياتهم ، بالإضافة إلى وعورة البلاد ومساحتها الشاسعة ، وصعوبة المواصلات بها .

ومنذ انتخاب أول إمام فى عام ٧٥٠هـ ، جرى العرف على انتخاب الأئمة . وكان آخر إمام تم انتخابه عام ١٩٥٤ ، وهو الإمام غالب بن على الهنائى ، الذى ظل فى السلطة حتى عام ١٩٥٦ ، عندما فر إلى السعودية وعاش فى المنفى بعد هزيمته

وكان الأئمة – الذين أعقبوا الجلندى بن مسعود – من قبيلته النبهانى . وفى عام ١٦٢٤ انتخب ناصر بن مرشد بن سلطان اليعربى اماماً ، وكان ينتمى الى قبيلة أخرى . وتعتبر قبيلة اليعاربة أقدم القبائل اليمانية جميعاً فى عمان ، وهى كما يلى فى تسلسلها : اليعربى ، العربى ، الحميرى ، الأزدى ، اليمانى . وكان الإمام ناصر شخصاً غير عادى . وقد تم انتخابه فى الرستاق ، وقاد عملية انتخابه شيخ عالم ورع هو خميس بن سعيد الشقصى ، الذى

أدار مداولات الشعب عندما دب بينهم انقسام شديد حـــول أمور كثيرة .

وعندما توفى الإمام ناصر عام ١٦٤٩م خلفه ابن عمه سلطان بن سيف اليعربى الذى طرد البرتغاليين من مسقط فى يناير ١٦٥٠ ، وطاردهم حتى الهند والساحل الشرقى لإفريقية وقد بنى أسطولا بحرياً قوياً من السفن التى استولى عليها من البرتغاليين ، وبذلك نجح فى أن يجعل من عمان بسرعة أقوى دولة بحرية فى شمال المحيط الهندى ، وازدهرت تجارة العمانيين بصورة لم يسبق لها مثيل .

وبوفاة سلطان بن سيف عام ١٦٧٩ ، أصبح ابنه بلعرب إماماً ، وبذلك وجد مبدأ الحكم الوراثى للإمامة . ولم يكن حكم بلعرب موفقاً ، ومتألقا مثل حكم أبيه . فلقد كان على نزاع مستمر مع أخيه سيف بن سلطان ، وتوفى فى النهاية فى قلعته الجميلة فى جبرين عام ١٦٦٢م .

وسعى سيف بن سلطان اليعربى الذى خلف أخاه ، نحو تطوير التجارة وقد شجع شعبه على ذلك وكانت عمان قوية فى عهده ، وازدهرت فيها التجارة والزراعة ، وتوفى فى الرستاق فى اكتوبر ١٧١١ .

وفى إطار مبدأ وراثة الإمامة ، فإن الذى خلف سيفا هو ابنه سلطان بن سيف . وكان الإمام سلطان متواضعاً ، وأنفق كثيراً من المال الذى ورثه عن والده ، وبالإضافة إلى ذلك فإنه اقترض قدراً كبيراً من المال . وبنى قلعة جميلة فى الحزم قرب الرستاق . ودرب بحريته على أن تكون هجومية بحيث أصبحت مهابة فى أنحاء الخليج والمحيط الهندى . وقد أدى ذلك إلى أن تكون لعمان اتصالات بسفن شركة الهند الشرقية ، وقوة بريطانيا فيما وراءها ، وهو ما كان له تأثيرات بعيدة المدى على تاريخ عمان .

وتوفى الإمام سلطان عام ١٧١٨ ، وكان عمر ابنه سيف بن سلطان الثانى إثنى عشر عاما . ورغم اتباع نظام مبدأ الوراثة ، فانه كان أنسب

رجل للإمامة ، إلا أنه لم يكن مقبولا لحداثة سنه ، وللحرب الأهلية التى وقعت بعد ذلك . وقد انقسم الجانبان المتنافسان فى الحرب الأهلية إلى فريقين ، يمانى ونزارى . وتولى قيادة القبائل اليمانية خلف بن مبروك ، وهو من قبيلة بنى هناة ، ولذلك عرفوا بالهنائيين . وكان على رأس النزاريين محمد بن ناصر وهو من بنى غافر ولذلك عرفوا بالغافرية . وقد قتل القائدان فى معركة صحار عام ١٧٢٤ .

وفى عام ١٧٣٧ تعرضت البلاد لغزو فارسى وقد زاد من تعقيد موقف الحرب الأهلية المضطرب ، ولكن نهاية هذا الصراع المدمر بدأت تلوح فى الأفق . فقد هزم الفرس فى صحار على يد أحمد بن سعيد بن محمد البوسعيد الذى انتخب بعد ذلك بوقت قصير إماما ، وذلك فى عام ١٧٤٤ . وأصبحت أسرة البوسعيد — التى تعرف الآن بآل سعيد . تملك توجيه دفة الأمور فى عمان طوال الـ٢٣٢ عاماً الماضية ، وينتمى إليها جلالة السلطان قابوس بن سعيد آل سعيد .

ورغم أن كثيراً من إنجازات أسرة اليعاربة قد دمرت أثناء الحرب الأهلية ، إلا أن الإمام أحمد استمر على سياسة تلك الأسرة التى دامت ١٢٠ عاماً . فقد شجع التجارة وازدهرت البلاد من جديد . واستمر حكمه ٣٩ عاماً ومات عام ١٧٨٣ .

وخلفه إبنه الثانى سعيد الذى وصل إلى الحكم بالانتخاب . ولم يكن إبنه الأكبر هلال أهلا للحكم لأنه كان ضريراً ، أما إبناه الصغيران سيف وسلطان فقد قضيا على أى مطلب لهما بتمردهما ضد أبيهما . ولم يلق سعيد تحدياً كامام ، ولكن بالنسبة لوضعه كحاكم دنيوى ، فان ابنه أحمد قد انتزع منه السيطرة السياسية ، ونقل العاصمة من الرستاق إلى مسقط ، حيث تولى الحكم ، وهو لا يحمل لقب « السيد » . وظل والده إماماً فى الرستاق ، لا يتمتع بأية سلطة حتى وفاته فى وقت فيما بين ١٨١١ و ١٨٢١

وكان نقل العاصمة من الرستاق إلى مسقط و تولى أحمد السلطة بلقب السيد بداية لاستخدام تعبير « مسقط وعمان » بدلا من عمان » كدولة واحدة ، واستمر هذا الوضع حتى يوايو ١٩٧٠ عندما تولى جلالة السلطان قابوس بن سعيد السلطة ، فأصدر مرسوماً بتغيير اسم البلاد من « سلطنة مسقط وعمان » ، إلى « سلطنة عمان ».

وحكم السيد أحمد بن سعيد فى مسقط ، من ١٧٨٤ إلى ١٧٩٢ وتوفى مصاباً بالجدرى فى مسقط . وقد حل محله عمه السيد سلطان بن أحمد . خامس أبناء الإمام أحمد — وأحد الأبناء الذين تمردوا على أبيهم عام ١٧٨١ .

وأبرم السيد سلطان بن أحمد اتفاقاً عائلياً مع إخوته فى بركا عام ١٧٩٣ . وأدى هذا الاتفاق إلى مزيد من انقسام عمان ، حيث استمر سعيد فى الرستاق كإمام ، وحكم قيس (الإبن الثالث للإمام أحمد) فى صحار ، وبقى سلطان فى مسقط . وبهذا الاتفاق قسمت سلطة الحكم ، وتعطلت الإمامة عن مزاولة السلطة . وقد شغل سلطان — أنشط أعضاء العائلة المالكة — بتطوير القوة البحرية والسفن التجارية . وتسبب هـذا فى استياء شعب الداخل . وضم السيد سلطان إليه إقليم جوادر على ساحل مكران فى بلوخستان ، وظل هذا الأقليم جزءاً من عمان حتى عام ١٩٥٨ حين تنازل عنه السلطان سعيد بن تيمور

وخلال الفترة من ١٨٠٠ إلى ١٨٠٣ تعرضت البلاد لغزو الوهابيين القادمين مما يعرف الآن بالمملكة العربية السعودية .

وقد نزلوا على ساحل الباطنة وحاصروا السيد قيس بن أحمد فى صحار ، وتعاقبت النكسات على العمانيين ، وبدأ الموقف شديد الخطورة حتى تم بالمصادفة أغتيال القائد الوهابى مما دفع أتباعه إلى الانسحاب .

وفى عام ١٧٩٨ ، أبرمت معاهدة مع شركة الهند الشرقية ، وهى

الشركة الإنجليزية التى استهدفت إبعاد الفرنسيين عن الهند . وأدرك السيد سلطان – بحكم كونه تاجراً ، له خبرته ومكانته – قوة الإنجليز وزياد سيطرتهم على تجارة الهند ، وأنه لا يملك القوة الكافية لمواجهتهم ، فوقع معاهدة معهم . وتوفى عام ١٨٠٤ .

وفور وفاته بدأت المكائد . وقد ظل عم سلطان . بدر بن سيف . حاكما أسميا حتى وفاته عام ١٨٠٦ . ومع ذلك استمر القتال والانقسامات الداخلية حتى اغتيل بدر بيد سعيد بن سلطان عام ١٨٠٦ . وفى تلك الفترة أغرى الضعف الداخلى الوهابيين على القيام بغزو ثان ، انتهى بالنجاح ، وأسفر عن سيطرتهم على مساحة كبيرة من داخل عمان .

وكان عمر السيد سعيد بن سلطان ، الذى عرف باسم سعيد الكبير ، سبعة عشر عاما ، وعندما تولى الحكم ، كان شابا مرموقا ، وقد خاض حروبا ، لإثبات كفايته وأهليته للحكم بإقصاء الوهابيين ، ولكن لم يتحقق له النجاح عليهم نهائيا إلا عام ١٨٢٠ ، بمساعدة البريطانيين والفرس .

وخلال تلك الفترة توفى الإمام سعيد بن أحمد ، وبعد وفاته لم تبذل أية محاولة لانتخاب إمام آخر .

وبذلك احتفظ السيد سعيد ، كما كان ، بالتقاليد التجارية لعائلته ، وعمل بنشاط لتوسيع تجارة عمان ونفوذها .

وفى عام ١٨٢٩ أحتل ظفار – المنطقة الجنوبية من عمان – .

وفى عام ١٨٣٢ وجه نشاطه لممتلكاته فى شرق إفريقية ، وأمضى معظم الفترة التالية من حياته فى زنجبار والساحل الشرقى لإفريقية .

وكان من نتيجة ذلك حدوث إزدهار فى عمان ، بيد أن اهتمامه بممتلكاته الإفريقية ، وغيابه الطويل الدائم عن عمان بعد عام ١٨٣٢ قد أغرى آخرين على السعى من أجل السلطة فى عمان .

ومما ساعد على ذلك علاقات السيد سعيد بالبريطانيين ، فقد كان مقتنعا بأنه لن يستطيع مواجهتهم ، وأنه إذا تعامل معهم كأصدقاء فإنه سوف يكون فى وضع أكثر آمنا ، وقد طلبه منه البريطانيون منع تجارة الرقيق التى يقوم بها رعاياه فى ممتلكاته الإفريقية . وفى الأجزاء العربية من ممتلكاته .

ولقد بداله ذلك الطلب من البريطانيين طلبا غريبا ، خاصة وأنه يتعارض مع نظام المجتمع العمانى والأسس الاقتصاديةالتى يقوم عليها .

فلم تكن للرق فى الإسلام تلك السمات اللا إنسانية التى اقترنت بها فى المجتمعات الأوربية . فالرقيق فى عمان يعدون من أفراد الأسرة وخدمها ، ويؤدون الأعمال المنزلية ، كما أن المجتمع يعتمد عليهم .

وحيث أن السيد سعيد لم يكن فى وضع يسمح له بمناقشة البريطانيين فى هذه الأمور فقد وافق على طلبهم ، وتم فى عام ١٨٢٢ توقيع أول معاهدة مع البريطانيين لتحريم الرق فى عمان . وكانت تلك المعاهدةمقدمة لمعاهدات أخرى وقعت عام ١٨٣٩ وعام ١٨٤٥ غير أن هذه المعاهدات تركت آثارا سلبيةعلىالأزدهار التجارى فى عمان ،وسببت شعورا بالمرارة ، ومن ناحية أخرى أصيبت الحركة التجارية فى عمان بضربات شديدة ،لأن السفن الأوربية الضخمة والسريعة وضعت السفن الشراعية العربية فى وضع غير قادر على المنافسة ، ثم زاد الطين بلة افتتاح قناة السويس الذى قضى على التجارة العمانية وأدى ذلك كله إلى تقليص إيرادات عمان بشكل حاد.أمضى السيد سعيد السنوات الأخيرة من حياته فى زنجبار ، وإن كان قد قام بزيارات عديدة لعمان كانت أكثرها لتسوية خلافات نشبت فى غيابه . وضعف نفوذه على شعبه فى عمان بسبب تلكالخلافات والمشاكل التى ، تفاقمت فى السنوات الأخيرة بسبب التهديد الوهابى لعمان .

وكانت آخر زيارة للسيد سعيد لعمان عام ١٨٥٤ ؛ حيث تلقى رسالة بأن الفرس قد قاموا بهجمات متكررة على بندر عباس ، التى كانت إقليما فارسيا صغيراً ، وضمه السيد سعيد لعمان ، وتحتل بندر عباس موقعا استراتيجيا عند مدخل الخليج ، وكان السيد سعيد يرفض إعادة الإقليم إلى الفرس رغم أنه كان ينفق عليه أكثر مما كان يدره . ولذلك فإنه بعد أن أتم كافة استعداداته وعين إبنه خالدا ممثلا عنه فى زنجبار ، غادر زنجبار ، يصحبه نجله برغش فى ١٨ أبريل ١٨٥٤ فى السفينة « فيكتوريا » وفى عمان كان يمثله فى غيابه ابنه ثوينى .

ولم يعش خالد طويلا . وتوفى بعد إصابته بمرض استعصى على الشفاء فى نوفمبر ١٨٥٤ وعمره ٣٥ عاما ، بعد ثمانية شهور من رحيل أبيه إلى عمان . وأصبح إبنه ماجد ممثلا لوالده .

ومكث السيد سعيد فى عمان حتى عام ١٨٥٦ . وغادر مسقط فى ١٥ سبتمبر ١٨٥٦ ، وبعد يومين من الابحار من مسقط فى ١٨ سبتمبر أصيب بألم شديد فى ساقه نتيجة جرح قديم ، كما أصيب بدوسنطاريا حادة وتوفى بعد ذلك بستة أيام على ظهر سفينته .

ومع ذلك لم يصل نبأ وفاته إلى عمان أو زنجبار . وكان أهل زنجبار ينتظرون عودته بشوق ، بينما فى عمان كانوا ينتظرون معرفة وصوله إلى زنجبار ، وعند وفاته فى ١٩ أكتوبر ١٨٥٦ ، تولى ابنه برغش أمر السفينة التى كانت تقل جثمانه ، ولما اقتربت من زنجبار أمر السيد برغش بأن ترسو السفينة فى غير المكان المعتاد ، وأخذ جثمان أبيه إلى الشاطئ ودفنه سراً .

فى نفس الوقت كان السيد ماجد يراقب البحر فى انتظار وصول سفينة أبيه بعد أن علم باقترابها . ولكن سوء الأحوال الجوية وهياج البحر جعلت قاربه الصغير لا يستطيع تحمل الأمواج ، ففقد السيطرة على دفة قاربه ولم يستطع الوصول إلى السفينة .

ووضع السيد برغش خطة للاستيلاء على الحكم . فما أن انتهى من مراسم دفن والده حتى قام بمحاصرة القصر الذى كان يقيم فيه أخوه السيد ماجد ، غير أن الخطة فشلت لغياب ماجد فى ذلك الوقت ، فقد كان يستقل السفينة فى البحر ، وبالتالى تم تنصيب السيد ماجد حاكماً على زنجبار فى نفس اليوم ، وكان يبلغ من العمر إذ ذاك ٢٢ عاماً .

أما السيد ثوينى فقد تولى حكم عمان بعد وفاة والده باعتباره أكبر أنجال السيد سعيد . ولكن سرعان ما نشب نزاع بين السيد ثوينى والسيد ماجد عندما طالب السيد ثوينى بفرض سلطته على زنجبار أيضاً .

وكنتيجة للمحاولات التى قام بها السيد ثوينى لفرض سلطته على زنجبار بالقوة ، تأزم الموقف ، فأحيل النزاع إلى اللورد البريطانى كاتنج الذى كان يشغل منصب الحاكم العام فى الهند . فأصدر كاتنج حكماً بوجوب تقسيم المملكة بين الأخوين . غير أن هذا القرار تمخض عنه خسائر اقتصادية بالغة لعمان ، ونظراً لأن اللورد كاتنج قد أدرك الغبن الذى تعرضت له عمان فقد أصدر فى سنة ١٨٦٠ قراراً بأن يلتزم السيد ماجد بدفع تعويضات سنوية لحكومة السيد ثوينى فى حدود ٤٠ ألف ريال نمساوى . غير أن حكومة زنجبار لم تلتزم بهذا القرار ، مما اضطر حكومة الهند إلى أن تتكفل بدفع المبلغ سنوياً ابتداء من عام ١٨٧١ حتى عام ١٩٤٧ عندما أصبحت هذه الأمور من اختصاص وزارة الخارجية فى لندن ، والتى استمرت فى دفعه حتى عام ١٩٦٧ عندما بدأت عمان تصدر البترول . وكانت قيمة هذا الدعم تقدر بمعدلات مختلفة من وقت لآخر .

ففى عام ١٨٧٣ قدرت بمبلغ ٨٦٫٤٠٠ روبية . وفى عام ١٩٦٧ وصل المبلغ إلى ٦٫٥٠٠ استرلينى .

وقد أدت وفاة السيد سعيد ثم تقسيم مملكته بين ابنيه ، إلى تدهور سريع فى أوضاع البلاد . ووجد خلفاء ماجد أنفسهم مقيدى الحركة أمام

زيادة الاهتمام الأوربي بشرق إفريقية والاعتداء على أراضيها ، خاصة من ألمانيا إلى أن تم فى عام ١٨٩٠ وضع زنجبار مع أراض أخرى فى إفريقية تحت سيطرة بريطانيا باسم الحماية .

وفى عمان سرعان ما تفتت السلطة القوية للسيد سعيد تحت حكم السيد ثوينى وخلفائه المباشرين . وكان الاستثناء هو فترة الحكم القصيرة للإمام عزان بن قيس من ١٨٦٨ إلى يناير ١٨٧١ . وأدرك الإمام عزان ، أن عمان لا يمكن أن تكون دولة قوية مستقلة ما لم يتم استعادة استعادة سلطة الحكومة المركزية على قبائل الداخل ، وأن يعاد دفع أموال الزكاة كمصدر تقليدى للدخل الحكومى ، فتحل محل العوائد الجمركية الضئيلة .

غير أن السيد عزان لم يحقق نجاحاً فى توحيد البلاد ، لأن الحكومة البريطانية لم تدرس هذا الموضوع ولم تدرس دوافعه ، ولم تعترف به أيضاً حكومة الهند ، وقد أوقف الدعم المالى الذى كان قد تقرر بموجب قرار كاتنج .

وإبتداء من عام ١٨٧١ فإن عمان غرقت أكثر وأكثر فى بحر من الكساد الاقتصادى بسبب اضطرابات كثيرة نشبت فى الداخل ، واستمر السلاطين فى مسقط يواجهون تمرد القبائل وتهديدهم ، وظلت هذه الاضطرابات والخلافات بين الطرفين حتى عام ١٩٢٠ عندما وقع اتفاق فى السيب بين عيسى بن صالح ممثلا للقبائل وبين حكومة مسقط ، وعاد السلام والاستقرار إلى البلاد . وكان السلطان وقتئذ هو السيد تيمور بن فيصل ، جد السلطان قابوس .

ومن بين مواد هذا الاتفاق المشار إليه ، أن يمتنع رجال القبائل المتمردة عن مهاجمة المدن الساحلية التى يتمتعون فيها بحرية التنقل والأمن ، وأن يسمح لسكان المـــدن الساحلية بالذهاب إلى المناطق الداخلية فى عمان

لممارسة أعمالهم التجارية ، وقد تعهدت حكومة السلطان بعدم التدخل فى شئون القبائل .

ويقضى الاتفاق أيضاً بأن تحل جميع الخلافات والدعاوى ضد الشعب العمانى من جانب التجار وغيرهم طبقاً للشريعة الإسلامية .

وفى عام ١٩٣٢ تنحى السيد تيمور ، وخلفه ابنه السيد سعيد بن تيمور ، وقد كان من الإنجازات الهامة التى قام بها السيد سعيد تصفيته الديون التى ورثها عن أبيه ، ورفضه أن يجلب على البلاد قروضاً أخرى ، وهو قرار له أهميته البالغة ، فقد كان أبوه وجده وجد أبيه قد تركوا الأمور تنزلق إلى مهـوى سحيق ، ولم يتلق السلطان سعيد نفسه أى مساعدات من المستشارين الأجانب .

وقد عاش السيد سعيد بن تيمور فى عزلة عن شعبه ، فى صلالة ، من عام ١٩٥٨ إلى ٢٣ يوليه ١٩٧٠ حين خلفه ابنه السلطان قابوس . وتوفى السيد سعيد بعد ذلك بعام فى دوشستر هاوس بلندن .

وإن السلاطين الذين تتابعوا فى حكم عمان بعد وفاة السيد سعيد الكبير هم كما يلى :

السيد ثوينى بن سعيد	من عام ١٨٥٦	الى عام ١٨٦٦
السيد سالم بن ثوينى	من عام ١٨٦٦	الى عام ١٨٦٨
السيد (الإمام) عزان بن قيس	من عام ١٨٦٨	الى عام ١٨٧١
السيد تركى بن سعيد	من عام ١٨٧١	إلى عام ١٨٨٨
السيد فيصل بن تركى	من عام ١٨٨٨	إلى عام ١٩١٣
السيد تيمور بن فيصل	من عام ١٩١٣	الى عام ١٩٣٢
السيد سعيد بن تيمور	من عام ١٩٣٢	الى عام ١٩٧٠

ومنذ عام ١٩٧٠ يتولى جلالة السلطان قابوس بن سعيد الحكم وإدارة

شئون البلاد . وفى زنجبار خلف السيد ماجد أباه السيد سعيد بعد وفاته ، واستطاع السيد ماجد الوصول إلى حكم الساحل الشرقى لإفريقية بطريقة سلمية ، بسبب شعبيته لدى معظم السكان العرب فى زنجبار .

ولم يكن أخوه السيد ثوينى الذى كان يحكم فى مسقط راضيا عن هذا الوضع ، وقد سارع إلى المطالبة بحكم كل ممتلكات أبيه ، وأخذ يستعد للإبحار إلى زنجبار مستهدفا فرض نفسه بالقوة على ما يعتبره حقا من حقوقه ، ولكن الحكومة البريطانية حالت بينه وبين تنفيذ خططه ، وكونت لجنة للنظر فى خلافات الإخوين المتنازعين ، وبينما كانت اللجنة تباشر مهمتها حاول ثوينى إثارة المتاعب ضد أخيه السيد ماجد بين بعض سكان زنجبار ، وساعده فى ذلك أخوه الأصغر السيد برغش .

ففى عام ١٨٥٩ دبر السيد برغش مؤامرة للإطاحه السيد ماجد ، وبدا فى لحظة ما أن المؤامرة قد نجحت لكن تدخل القنصل البريطانى فى زنجبار أدى إلى إحباطها فى النهاية — وأبعد السيد برغش إلى بومباى حيث عاش هناك حتى عام ١٨٦١ .

وفى نفس العام أنهت اللجنة أعمالها ، وقررت تقسيم الحكم بين السيد ثوينى وبين السيد ماجد . وتم بذلك فصل شرقى أفريقية عن عمان إبتداء من عام ١٨٦١ .

وتوفى السيد ماجد عام ١٨٧٠ وعمره ٣٧ عاما وخلفه أخوه السيد برغش .

وكان السيد برغش شخصية مرموقة ، ويشبه والده السيد سعيد فى كثير من صفاته . وقد كشفت طريقة تآمره على أخيه السيد ماجد عن مدى طموحه وجرأته . كما كان أكثر حيوية ونشاطا من أخيه السيد ماجد . وقد اتهم بولعه بالحياة المترفة . وفى عهده جرى استخدام لقب

سلطان لأول مرة فى الاستعمال خاصة بين الأوربيين المقيمين فى زنجبار ، وأقام لنفسه قصراً جميلا ، مازال قائماً — ويعرف باسم بيت العجائب — كما مد خط أنابيب للمياه من نبع شيم شيم إلى المدينة لتوفير المياه النقية للسكان ، وعندما اجتاح إعصار رهيب زنجبار ودمر كل مزارع القرنفل ، ظهرت قوة شخصية السيد برغش بالطريقة التى عمل بها على الفور ، فعادت زراعة القرنفل إلى حالتها المزدهرة .

وفى عهده أصبح شرقى أفريقية أكثر اتصالا بالعلم الخارجى عن طريق السفن التجارية وخطوط المواصلات السلكية ، وفى عام ١٨٦٩ فتحت قناة السويس ، وبعدها بفترة قصيرة فى عام ١٨٧٢ بدأت شركة الملاحه البريطانية الهندية خدمة بريدية شهرية بين عدن وزنجبار ، وفى عام ١٨٧٩ أتمت شركة التلغراف الشرقية مد خط تلغرافى بحرى تحت الماء من عدن إلى زنجبار ، مما جعل الساحل على اتصال وثيق بالعالم الخارجى .

وفى عام ١٨٧٥ قام السيد برغش بزيارة رسمية لانجلترا حيث استقبلته الملكة فيكتوريا ، وأمير وأميرة ويلز . كما زار باريس وبرلين وهو فى طريق عودته إلى شرقى أفريقية .

ويعتبر عهد السيد برغش فترة لا تنسى لأنها شهدت بداية الاهتمام الأوربى النشط بأفريقية ، والقضـــاء التدريجى على تجارة الرقيق فى شرقى أفريقية .

وفى عام ١٨٧٣ أرسلت الحكومة البريطانية السير بارتل فرير إلى زنجبار لإقناع السيد برغش بالموافقة على معاهدة أكثر فعالية فى الحد من تجارة الرقيق من تلك التى وقعها والده . ووجد السيد برغش نفسه فى موقف بالغ الحرج ، وشكا للسيد بارتل فرير من أنه يجد بريطانيا — من جانب — تصر على القضاء على تجارة الرقيق — ويجد من جانب آخر — رعاياه العرب يرفضون مطالب الحكومة البريطانية لأنها تتعارض مع مصالحهم .

وكان الإعصار الذى دمر مزارع القرنفل وجلب الخراب على كثير من أصحاب المزارع العرب قد جعل توقيع معاهدة جديدة أمراً عسيرا على السيد برغش ، وأبدى السيد برغش اعتراضه على هذه المعاهدة ، بأنه إذا استجاب للمطالب البريطانية فإن حياته ستتعرض للخطر بسبب السخط الشديد الذى ستحدثه مثل هذه الخطوة بين رعاياه العرب .

وكلف القنصل البريطانى العام فى زنجبار الدكتور كيرك بمفاوضة السيد برغش ، وأمام رفض السيد برغش توقيع المعاهدة ألمح الدكتور كيرك إلى أن بريطانيا قد تجد نفسها مضطرة إلى استخدام القوة فى حالة رفض توقيع المعاهدة ، وفى النهاية وقعت المعاهدة فى عام ١٨٧٢ ، وتم فى نفس اليوم إغلاق سوق العبيد فى زنجبار .

وتوفى السيد برغش عام ١٨٨٨ ، وخلفه أخوه السيد خليفة بن سعيد، ولم يستمر عهد السيد خليفة سوى عامين .

وفى عام ١٨٩٠ تولى حكم زنجبار على بن سعيد آخر أبناء السيد سعيد الكبير . وكان أبرز حدث فى عهده هو إعلان جزيرتى زنجبار وبيمبا محميتين بريطانيتين ، وذلك فى يوم ١١ نوفمبر سنة ١٨٩٠ ومنذ ذلك التاريخ وحتى ١٠ ديسمبر ١٩٦٣ ، وضعت الإدارات والحكومة فى زنجبار فى أيدى مسئولين بريطانيين ، تحت حكم السلطان الذى أصبحت سلطته محدودة للغاية ، فكان الحاكم الإسمى .

وبهذا انتهى الحكم الطموح للسيد سعيد الكبير فى بناء إمبراطورية واسعة فى شرقى أفريقية له ولخلفائه من بعده .

ورغم أن اللوم يمكن أن يقع على عدم قدرة خلفاء السيد سعيد على إقامة حكم راسخ وفعال فى هذه المناطق ، غير أن المنافسة الأوربية على الاستحواز على مناطق فى أفريقية تتحمل أيضاً جزءاً من المسئولية . فقد كان لا بد من قوة اوربية تتقدم لتأخذ فى يدها السلطة فى زنجبار .

وعهد إلى مسئول بريطانى هو السير لويد ماثيوز بمهمة إعادة تنظيم الحكومة تحت الحماية البريطانية . ومنح لقب الوزير الأول للسلطان . وكان سير لويد ماثيوز قد جاء لأول مرة إلى شرقى أفريقية كليفتنانت فى البحرية البريطانية ، ولعب دوراً فعالا فى القضاء على تجارة الرقيق . وبعد ذلك بعامين أوفدته البحرية البريطانية لينضم إلى حامية السيد برغش فى تدريب قوة عسكرية صغيرة من ٥٠٠ رجل . وقد حقق فى منصبه الجديد نجاحاً كبيراً ، وأعجب السيد برغش بما حققه .

وبعد تقاعد ماثيوز من عمله فى البحرية البريطانية ، عين قائداً لجيش السلطان عام ١٨٨١ برتبة بريجادير جنرال . ولذلك فانه كان على دراية واسعة بالعرب وتقاليدهم وأساليب حياتهم ، فضلا عن ارتباطه بشئون القصر ، إثر تعيينه وزيراً أول للسيد على عام ١٨٩١ .

وتوفى السيد على بن سعيد عام ١٨٩٣ ، وخلفه السيد حمد بن ثوينى أحد أحفاد السيد سعيد . وشهدت زنجبار اضطرابات خلال توليه الحكم ، حيث قام السيد خالد أكبر الأبناء الباقين للسيد برغش ، بمحاولة يائسة للاستيلاء على الحكم بالقوة . ولم ينجح خالد فى مساعيه خلال الفترة القصيرة من حكم السيد حمد بن ثوينى ، لكنه قام بعد وفاته عام ١٨٩٦ بأكثر من محاولة لاغتصاب الحكم بل أنه حتى قبل أن يوارى جسد السيد حمد التراب . اقتحم السيد خالد مع فئات من العرب المسلمين ، القصر وأعلن نفسه سلطانا .

وقد حدث ذلك فى ٢٥ أغسطس عام ١٨٩٦ ، وفى اليوم التالى قام الممثل البريطانى فى زنجبار بجهود يائسة لإقناع السيد خالد بالتخلى عن السلطة ، لصالح السيد حمود بن محمد . لكنه رفض وبقى فى القصر . ولذلك صدرت الأوامر للأسطول البريطانى بقيادة الأدميرال راوسون ، بإقامة سياج من الحراسة على قصر القنصل البريطانى العام ، والجمارك ، والحى الأوربى .

وفى صباح ٢٧ أغسطس أرسل الأدميرال إنذاراً للسيد خالد بأن يستسلم خلال ساعتين وإلا فإنه سيضطر إلى قصف القصر . ولم يرد السيد خالد . ولذلك بدأت ثلاث سفن حربية فى قصف القصر فى الساعة التاسعة صباحا — وفى خلال نصف ساعة كان القصر قد تحول إلى شعلة من النيران ، وأصبح الجزء الأوسط منه أنقاضا ، وسقط خمسمائة من أنصار السيد خالد قتلى أو جرحى فى ميدان القصر .

وبعد أن رأى خالد كل هذا هرب من القصر المحطم ، واتخذ طريقه إلى القنصلية الألمانية ، ومن هناك توجه سراً إلى داو السلام ، حيث سمحت له الإدارة الألمانية بالإقامة هناك .

وقد بقى هناك إلى أن قامت الحرب العالمية الأولى فانضم إلى الألمان ضد البريطانيين ، ووقع فى أسر القوات البريطانية عام ١٩١٧ فنفته إلى جزيرة سانت هيلانة ، ثم نقلته فى عام ١٩٢١ إلى سيشل .

وفى مقابل تعهداته بالتخلى عن المطالبة بالسلطة سمحت له السلطات البريطانية عام ١٩٢٥ بالعودة إلى شرقى إفريقية ، والإقامة فى ممباسة ، حيث أمضى هناك بقية حياته ، ومات عام ١٩٢٧ .

وكان السيد حمود بن محمد قد تولى الحكم فى زنجبار عام ١٨٩٦ ، وتمت مراسم تنصيبه فى جو سلمى ، وكان يقال عنه ، إنه موال للبريطانيين تصرفاته ، وقد بذل جهوداً كبيرة التشجيع رعاياه على مجاراة البريطانيين فى سلوكهم وفى طرق حياتهم ، وأوفد هو نفسه إبنه السيد على بن حمود للدراسة والتعلم فى المدرسة الإنجليزية فى هارو .

وقد توفى السير لويد ماثيوز فى عهده ، وكانت وفاته فى ١٤ أكتوبر سنة ١٩٠١ ، واعتبرت وفاته صدمة لكل أهالى زنجبار وبيمبا ، نظراً لما شهدته الجزيرتان فى عهده من رخاء ، ولارتباطه الطويل بهذه البلاد حتى أصبح وكأنه جزء من صميم حياتها .

وقد أمضى السير لويد ماتيوز فى شرقى إفريقية مدة ستة وعشرين عاما لم يزر فيها وطنه سوى مرتين اثنتين .

وتوفى السيد حمود فى ١٨ يوليه عام ١٩٠٢ ، وخلفه ابنه السيد على ابن حمود ، وكان لايزال صغيراً ، لايستطيع تولى مسئوليات الحكم قبل عام ١٩٠٥ رغم إعلانه سلطانا ، فقام مستر روجرز الوزير الأول بمهام الوصى على السلطان الصغير خلال الفترة من ١٩٠٢ إلى ١٩٠٥ .

وقد غرست إقامة السيد على فى إنجلترا للدراسة فى نفسه حب الأسفار ، فاعتاد بعد أن أصبح سلطانا على أن يمضى فترة من كل عام فى ربوع أوربا ، وكان أسلوب حياته فى زنجبار متمشيا مع الأساليب الأوربية . وقد غادر زنجبار عام ١٩١١ لحضور حفل تتويج الملك جورج الخامس ، وأثناء وجوده فى أوربا قرر التنازل عن العرش . وأمضى بقية حياته فى أوربا . وتوفى فى باريس عام ١٩١٨ .

وقد خلفه فى عام ١٩١١ السيد خليفه بن حارب .

وفى عام ١٩١٣ ألغيت مكاتب الوزير الأول والقنصل البريطانى العام . واستبدلت بها مكاتب جديدة ؟ هى مكتبا المقيم البريطانى ، والسكرتير الأول . وتم فى نفس الوقت تشكيل مجلس الحماية من السلطان نفسه رئيسا ، وعضوية المقيم البريطانى . كنائب للرئيس ، وقد شمل أيضاً ثلاثة أعضاء مسئولين وأربعة أعضاء غير رسميين لتمثيل مختلف الطوائف .

وفى عام ١٩٢٦ حلت مجالس تشريعية وتنفيذية محل مجالس الحماية . وكان الهدف من المجلس التشريعى – الذى كان يضم عدداً من الأعضاء غير الرسميين رغم أن غالبيته من الرسميين – هو إعطاء أفراد الشعب نصيباً أكبر من المشاركة فى حكم بلادهم بصورة أكبر مما كان معمولا به . وكان المجلس التشريعى مخولا بسلطة سن القوانين لتوفير عدالة الإدارة فى

ورفع الدخول ، وضمان الأمن والنظام ، وحسن إدارة الحماية .

وشهدت الجزيرتان خلال عهد السيد خليفة أعمالا كثيرة لتطوير مصادرهما . فقد أنشئ ميناء جديد وشقت طرق عديدة حديثة فى زنجبار وبيمبا . وأفادت هذه الطرق منتجى القرنفل ، وسهلت انتشار خدمات التعليم والصحة ، ووصولها إلى القرى النائية فى الجزيرتين . وافتتحت مدرسة لتدريب المدرسين ، ثم بدأ تدريجيا فى إنشاء مدارس إقليمية فى كل جزء من المحمية . وفى عام ١٩٢٧ افتتحت مدرسة لتعليم البنات فى مدينة زنجبار .

ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى أنه كان المفروض أن تخلف السيدة معتوقة بنت حمود أخاها السيد على بن حمود بعد تنازله الأخير عن العرش عام ١٩١١ ، ولكن التقاليد السائدة كانت تمنع تولى امرأة منصب رئيس الدولة ، ومن ثم فقد تولى زوجها السيد خالد السلطة .

وعندما توفى السيد خليفة عام ١٩٦١ ، نودى بابنه السيد عبد الله بن خليفه سلطانا . ولم يبق السيد عبد الله طويلا فى الحكم . فقد مات عام ١٩٦٢ بعد إصابته بآلام حادة فى ساقيه انتهت باستئصالهما .

وخلفه إبنه الأكبر السيد جمشيد بن عبد الله ، وهو آخر سلاطين زنجبار . عند إعلان استقلالها فى ١٠ ديسمبر ١٩٦٣ . وبعد ذلك بشهر واحد ، أى فى ١١ يناير ١٩٦٤ وقع انقلاب مدبر من الخارج وأطيح بحكومته . فتوجه السيد جمشيد إلى إنجلترا للاقامة الدائمة فيها .

السلاطين البوسعيديون الذين تعاقبوا على حكم زنجبار بعد وفاة السيد سعيد الكبير ، هم كما يلى :

السيد ماجد بن سعيد	١٨٥٦ – ١٨٧٠
السيد برغش بن سعيد	١٨٧٠ – ١٨٨٨

السيد خليفة بن سعيد	١٨٨٨ — ١٨٩٠
السيد على بن سعيد	١٨٩٠ — ١٨٩٣
السيد حمد بن ثوينى	١٨٩٣ — ١٨٩٦
السيد حمود بن محمد	١٨٩٦ — ١٩٠٢
السيد على بن حمود	١٩٠٢ — ١٩١١
السيد خليفة بن حارب	١٩١١ — ١٩٦١
السيد عبد الله بن خليفة	١٩٦١ — ١٩٦٢
السيد جمشيد بن عبد الله	١٩٦٢ — ١٩٦٣

العرب فى شرقى إفريقية

الداو ، اسم لنوع من السفن الشراعية العربية المعروفة لسكان شرقى إفريقية ، وكان هذا النوع من السفن يقوم برحلات سنوية إلى شواطئ شرقى إفريقية ، تحمل مختلف أنواع السلع العربية مثل البلح ، وسمك القرش المجفف ، والقهوة والسجاد ؛

وكانت هذه القوارب تخرج عادة من الجزيرة العربية فى شهر يناير ، ثم تبحر عائدة إلى بلادها فيما بين نهاية مارس وأوائل يونية من كل عام ؛

وكان مما يسهل هذه الرحلات المنتظمة ذهابا وأياباً الرياح الموسمية التى تهب من الشمال إلى الشرق فى شهر ديسمبر ، وتصل بالعرب إلى الساحل الشرقى من إفريقية ، وتهب من الجنوب إلى الغرب فى مارس فتعود بهم إلى الجزيرة العربية فى رحلة تستغرق ألفى ميل فى مياه المحيط الهندى . وقد استفاد بحارة وتجار الجزيرة العربية والبلاد المجاورة لها من الرياح الموسمية طوال ما لا يقل من ٣٠٠٠ عام

ولعب هؤلاء الملاحون دوراً هاما فى تاريخ الساحل الشرقى لإفريقية .

وكانت التوابل والعاج والعبيد تجذب أنظار هؤلاء الزوار القادمين من الجزيرة العربية ، الذين تغريهم تلك السلع وتشجعهم على قطع تلك المسافة الطويلة للحصول عليها ، لما كانت تحققه تجارتها من مكاسب كبيرة ،

وقد وجد العرب بالاضافة إلى ذلك سوقاً رائجة لسلعهم .

وكانت الصومال المنطقة الرئيسية للتوابل . وكان العاج من المنتجات الإفريقية الهامة ، وقد اهتم الإفريقيون الوطنيون بصيد الفيل ، الذى لم تكن له استخدامات أخرى ، من أجل أنيابه ، وينقل العاج من داخل إفريقية إلى الساحل ، فيباع للتجار الزائرين .

وكان الطلب على العاج كبيراً فى كثير من دول الشرق ، حيث يستخدم فى عمل أثاث المنازل وفى تحف الزينة .

أما تجارة العبيد فكان نطاقها كبيراً ، وقد عانت إفريقية بسبب هذا النوع من التجارة ، بأكثر مما عانى أى مكان آخر فى العالم .

ولم يكن العرب العمانيون أول من زار الساحل الشرقى لافريقية ، فقد كان السومريون الذين عاشوا بالعراق منذ ٧٠٠٠ عام أول شعب يقوم أبناؤه برحلات إلى البحار المفتوحة ، وأول من اخترع السفن الشراعية . وقد ازدهرت الحضارة السومرية لفترة امتدت ألف عام إلى أن هزمهم شعب آخرهم ، الأشوريون ، الذين لم يدمروا حضارة السومريين ، ولكنهم حافظوا عليها وطوروها .

وقام الآشوريون أيضاً برحلات بحرية ، ومن الممكن أنهم وصلوا إلى الساحل الشرقى لافريقية حيث تركوا وراءهم مزاولة السحر التى لا تزال موجودة يمارسها بعض سكان الساحل ، وتعتبر مماثلة لتلك الممارسات التى جرت بين الآشوريين والسومريين .

وهناك صلة هامة أخرى بين الآشوريين وشرقى أفريقية هى استخدام علامة القرن . التى تسمى فى السواحيلية « سيوا » ، فى الكتابة والنحت للتدليل على القوة والزعامة . واستخدم الرؤساء القبليون فى شرقى إفريقية علامة مماثلة كرمز للقوة والسلطة . ويمكن مشاهدة هذه القرون الآن فى بعض المتاحف الأفريقية . ففى جزيرة لاموه بكينيا يوجد أحد قرون العاج الجميلة فى متحفها . وفى متحف زنجبار صورة لقرن كان يستخدم فى لاموه وهو مصنوع من البرونز . ويوجد فى نفس المتحف قرنان من الخشب بين مخلفات الحاكم السابق لزنجبار والذى كان يسمى « موينى مكون » .

والهنود أيضاً من أقدم من استفادوا بالرياح فى الموسمية فى التجارة مع شرقى إفريقية . وبالإضافة إلى رحلاتهم التجارية فقد أقاموا مستوطنات على الساحل ، وربما توغل بعضهم إلى الداخل إلى منطقة البحيرات الكبرى .

وقد أرسل المصريون بعثاتهم التجارية منذ ٥٠٠٠ عام إلى الصومال التى أسموها بونت . وكانوا يتاجرون على نطاق واسع فى الذهب والعاج

وجلد النمر ، الذى استخدمه الملوك والنبلاء المصريون القدامى فى تزيين قصورهم .

كذلك قام اليهود والفينيقيون برحلات مماثلة إلى الساحل الشرقى لإفريقية وقد عاش الفينيقيون على الساحل الشرقى البحر المتوسط ، وكانوا جيرانا لليهود . واستخدموا مينائى صور وصيدا ، وقاموا برحلات تجارية إلى بلاد أفير وسوفالا للحصول على الذهب . والفضة والعاج والقرود والطاووس ويعتقد أن تلك الرحلات تمت منذ ألف عام قبل الميلاد .

وكان للعرب الذين يؤمون الساحل الشرقى لإفريقية دور هام ومستمر ، وأكثر تأثيراً من دور أى فريق آخر فى المنطقة . وقد ظل تاريخ شرقى إفريقية مرتبطا بالعرب ارتباطا وثيقا طوال ثلاثة آلاف عام .

ولقد كان سكان المناطق الجنوبية من الجزيرة العربية ملاحين يتمتعون بمهارة فائقة ، وتجاراً بارزين مشهود لهم بالخبرة ، وكانت الموانىء الجنوبية للجزيرة العربية فى الماضى مركزاً لازدهار تجارى كبير ، ونعمت دول أخرى صغيرة فى المنطقة بالثراء والقوة .

وقد سهل الموقع الجغرافى لشبه الجزيرة الاتصال بالدول القريبة فى إفريقية وآسيا . فحدود الجزيرة العربية من ناحية الغرب ، حيث باب المندب ، تلامس إفريقية ، وهى من ناحية الشرق قريبة جداً من فارس ومن الساحل الغربى للهند ، وفى الشمال فإن الجزيرة العربية متصلة وقريبة من الدول المطلة على البحر الأبيض المتوسط .

كما كانت موانىء جنوب شبه الجزيرة مكانا ملائما للرحلات بين الشرق والغرب ، ولذلك كانت السلع من موانىء منطقة الخليج والهند تنقل على طول الساحل الجنوبى للجزيرة العربية ، وتتوجه إلى البحر الأحمر ، ثم إلى ميناء السويس .

وأكثر من ذلك فقد كان العرب أكثر الشعوب استفادة من الرياح الموسمية ، واحتكروا ملاحة البحر الأحمر فى أيديهم . وكانت السلع القادمة

من الشرق أولا إلى جنوب الجزيرة العربية إما عن طريق البحر ، أو بالقوافل تمر عبر الصحراء إلى الدولة المطلة على البحر المتوسط . وبذلك أصبح جنوب الجزيرة العربية سوقا ضخمة ومركزا تجاريا هاما يتم فيه تناول منتجات العالمين الشرقى والغربى . وبالإضافة إلى ذلك النوع من التجارة اكتشف العرب من سكان جنوب الجزيرة منذ ثلاثة آلاف عام أنه يمكن الاستفادة من الرياح الموسمية فى إقامة تبادل تجارى مع الساحل الشرقى لأفريقية ؛ وأصبح من المعتاد إرسال أسطول تجارى ضخم من السفن كل عام على طول الساحل الشرقى لإفريقية كله .

ويعتبر العمانيون أول شعب يقيم مستوطنات له على الساحل الشرقى لإفريقية ، فبعد انتفاضهم على حكم الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان هاجر جماعة منهم بقيادة سليمان وسعيد ابنى الجلندى إلى شرقى إفريقية بعد هزيمتهم من جيش الخليفة الذى أرسله إلى عمان .

وليس معروفا بصفة أكيدة مكان استيطانهم فى المهجر الذى ذهبوا إليه فى إفريقية ، ولكن المعروف أنهم أقاموا فى جزيرة باتى شمالى كينيا ، وقد لعبت هذه الجزيرة دورا هاما فى التاريخ العربى فى الأعوام اللاحقة .

والموجة الثانية من العرب المهاجرين إلى شرقى إفريقية حدثت إثر نزاع قام بين طوائف الشيعة الذين أنقسموا إلى مجموعتين متعاديتين ، وكان يقود إحدى هاتين المجموعتين زيد بن على بن أبى طالب ، وقد هزم زيد وذبح على يد أنصار الخليفة ، واضطر أنصاره للنجاة بأرواحهم ، فذهبوا إلى شرقى إفريقية حيث استوطنوا بنادير فى الصومال .

ومارس الزيديون السلطة على ساحل بنادير طوال ألفى عام . ومع بداية القرن التاسع هاجمتهم مجموعة أخرى من المهاجرين قدمت من الإحساء فى المملكة العربية السعودية .

فقد أبحر سبعة إخوة من الإحساء فى ثلاث سفن وتوجهوا إلى ساحل

بنادير حيث أسسوا مدينتى مدغشقر وبراوا . ورفض الزيديون الاعتراف بسلطة القادمين الجدد ، وتراجعوا إلى الداخل حيث تزاوجوا مع الوطنين .

ونعود الآن إلى قصة حسن بن على واخوته الستة .

والمعروف أن حسن بن على إما أنه أحد أبناء حاكم شيراز ، أو أنه ذلك الحاكم نفسه . ولقد قرر لأسباب غير معروفة مغادرة شيراز . وغادر فارس يصحبه أخوته الستة وعدد من أنصاره عام ٩٧٥ يقلهم أسطول من سبع سفن ، وتوقف ركاب ثلاث من هذه السفن واستوطنوا أماكن مختلفة على طول الساحل الشرقى لإفريقية . وتوقف السفينة الرابعة فى ممباسة ، والخامسة فى بيمبا ، والسادسة — وهى التى تقل حسن نفسه — فى كيلوا ، أما الخامسة فقد رست فى جوهانا فى الكومور .

وفى كيلوا وجد حسن أن العرب يستوطنونها بالفعل فبدأ فى إجراء مفاوضات مع « لورد أوكيلوا » وهو رئيس قبلى إفريقى . واشترى منه حسن الجزيرة واستطاع حسن وأتباعه أن يعيشوا فى أمان من أى هجمات إفريقية لأن الجزيرة كان يفصلها عن الأرض مجرى مائى عميق .

ومن بين الذين هاجروا إلى الساحل الشرقى لإفريقية الصينيون ، والملاويون والواديبولى .

وقد نزل الصينيون على الساحل الشرقى لإفريقية فى العصور الوسطى بهدف التجارة . وعثر فى عدة أماكن من الساحل على عملة وأوان فخارية صينية تعود إلى عام ٧٠٠ ميلادية ، وأدخل الملاويون زراعة نخلة الأربعة وقصب السكر ، ونبات التنبول المتسلق . ويعتقد أن الواديبولى قد جاءوا من شيراز وأدخلوا زراعة جوز الهند إلى المنطقة .

— ٥ —

مجئ البرتغاليين إلى شرق أفريقية

رأينا أن حسن بن على اتخذ من كيلوا موطنا له عام ٩٧٥ ، وقد وصل البرتغاليون إلى شرق أفريقية عام ١٤٩٧ ، وتعرف فترة الخمسمائة عام بين وصول حسن بن على وبين وصول البرتغاليين بفترة (إمبراطورية الزنج) . وتعنى كلمة زنج ، السود ، واستخدمها الكتاب العرب والفرس فى الإشارة إلى الساحل الشرقى لإفريقية بأنه « أرض السود » ، أو زنجبار ، وفى الأيام السابقة أطلقت كلمة زنجبار أو « أرض الزنوج » ، على منطقة الساحل الشرقى لأفريقية بأكملها .

وأثناء فترة امبراطورية الزنج ، قامت على طول الساحل بعض الدول العربية والفارسية أو السلطنات ، وتمتعت دولة كيلوا الشيرازية بالسيادة على معظم المدن الساحلية الأخرى ، ولذلك سميت امبراطورية .

وازدهرت خلال هذه الفترة تجارة الذهب والعاج والرقيق بين ساحل إفريقية وآسيا . وتطورت المدن والمراكز التجارية على الساحل حجما ورخاء ، ومازالت أطلال هذه المدن تنتشر للآن على طول الساحل . ومارست كيلوا باعتبارها أقوى هذه الدول الساحلية نفوذا كبيرا على ثقافة المنطقة كلها وقد كانت فارسية الصبغة أساسا . وترك التزاوج بين المستوطنين الفرس والسكان الوطنيين علامه دائمة على سكان منطقة الساحل الذين يؤكدون حتى اليوم أنهم من أصل شيرازى .

وانشأ الشيرازيون كثيراً من المساجد الجميلة ، تحمل أسلوبا هندسيا مميزاً ، يمكن تمييزه بسهولة فى أطلال المساجد الكثيرة على طول الساحل .

وقد أطاح البرتغاليون بامبراطورية الزنج .

ففى خلال القرن الخامس عشر حاول الملاحون البرتغاليون البحث عن طريق بحرى إلى الهند والشرق الأقصى بالدوران حول أقصى نقطة جنوبية فى أفريقية . وجدير بالذكر أنه بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية فى القرن الخامس أعقبتها عصور الظلام التى عاشت أوربا خلالها فى حالة من الفوضى ، والجهل ، وإراقة الدماء حتى القرنين الخامس عشر والسادس عشر اللذين عرفا بـ « عصر الاكتشافات » ، ولم تكن هناك صلة تذكر بين أوربا وإفريقية ، ولذلك لم يكن الأوربيون يعرفون الكثير عن حجم إفريقية الحقيقى . وكل ما توصلوا إلى معرفته ، أنه إذا أبحرت سفينة إلى ساحل إفريقية ودارت حول نهاية القارة ، فإنها يمكن عندئذ أن تصل إلى الهند بالإبحار شرقا عبر المحيط الهندى .

ولم يتحقق أول نجاح كبير فى هذا الصدد إلا عام ١٤٨٦ ، عندما دار الملاح البرتغالى بارثولوميو دياز حول الطرف الجنوبى لإفريقية ، وأبحر على طول الساحل الشرقى حتى بحر الأسماك الضخمة . ورفض بحارته المضى إلى أبعد من ذلك خوفا من قسوة الجو ، واضطر للعودة إلى وطنه . وبسبب الرياح القوية اختار تسمية الرأس الجنوبى برأس العواصف ، ولكنه عندما أبلغ ملك البرتغال بمغامرته ، اقترح عليه الملك تسميته برأس الرجاء الصالح .

وبوصوله الى تلك المنطقة يكون قد مهد الطريق إلى استكشاف الطريق إلى الهند .

بعد ذلك بعشر سنوات وصل مكتشف برتغالى آخر هو فاسكو دى جاما إلى الهند عن هذا الطريق . فقد غادر لشبونة فى ٨ يوليو ١٤٩٧ ، ودار حول رأس الرجاء الصالح فى ديسمبر ، وأبحر على طول الساحل الشرقى ، وتوقف فى موزمبيق فى ٢ مارس ١٤٩٨ . ثم واصل السير على طول الساحل الشرقى ، ورسا فى ممباسة فى ٧ أبريل ١٤٩٨ ، بعد أن أصيب بنكسة وهو

يحاول دخول ميناء ممباسة واصل السير إلى ماليندى حيث استقبله السكان بالكرم والترحاب . ومن هناك رافقه البحار العمانى أحمد بن ماجد الذى تولى ريادة بقية الرحلة عبر المحيط الهندى . وقد غادر ماليندى بعد توقف تسعة أيام ، ووصل كالكتا بالهند فى ٢٨ مايو ١٤٩٨ ، وبعد حوالى قرن من الاكتشافات وصـــل البرتغاليون أخيرا إلى الهند بحرا عن طريق جنوب أفريقية وذلك بمساعدة العمانيين . وجدير بالذكر أن فاسكو دى جاما وجد فى كل من موزمبيق وماليندى ، عربا يستوطنونهما ، ولغة عربية يجرى التخاطب بها على نطاق واسع .

وأثناء عودة فاسكو دى جاما من الهنـــد بعد حوالى عام توقف مرة أخرى فى ماليندى ، وأقام نصبا تذكاريا من الحجر فى منطقة البحر فى جنوب المدينة . ومازال هذا النصب التذكارى قائما هناك ، ويعتبر من أبرز المواقع السياحية فى كينيا . وقد عاد فاسكو دى جاما إلى لشبونه فى سبتمبر ١٤٩٨ .

وعقب رحلة فاسكو دى جاما التاريخية إلى الهند بدأ البرتغاليون فى الحال يرسلون بعثات تجارية منتظمة إلى الهند والشرق . وبدأت سفنهم تظهر شيئا فشيئا فى مياه المحيط الهندى ، وفى منتصف القرن السادس عشر كان البرتغاليون قد أنشأوا امبراطورية تجارية كبيرة فى الشرق ضمت هرمز عند مدخل الخليج ، وموانى مسقط وصحار وقريات فى عمان ، ومحطات تجارية مختلفة على طول الساحل الغربى للهند ، وأجزاء من سيلان وملقا ، وعدد من الممتلكات فى خليج الملايو . . كذلك أصبح الساحل الشرقى من أفريقية جزءا من تلك الإمبراطورية الواسعة . وعاما بعد آخر كانت ثروات الشرق تنقل عبر المحيط الهندى إلى البرتغال ، التى حققت تطورا كبيراً فى القوة والإزدهار .

وأدرك البرتغاليون بعد هذا النجاح أنه لابد لهم من السيطرة على الساحل الشرقى لإفريقية حتى تكون لهم مجموعة من الموانئ المناسبة تحصل منها

سفنهم على الماء والطعام الذى تحتاج إليه فى رحلاتها الطويلة ، وأن تصبح مثل هذه الموانى نوعا من المحطات فى منتصف الطريق بين البرتغال والشرق. ولم يعتبر البرتغاليون ممتلكاتهم فى شرق أفريقية ، فى أهمية المناطق الغنية الخاضعة لهم على الجانب الآخر من المحيط الهندى .

وكان إخضاع البرتغاليين للساحل الشرقى من أفريقية ثم سقوط امبراطورية الزنج فيما بعد — قد بدأ عام ١٥٠٢ عندما قام فاسكو دى جاما برحلته الثانية إلى الهند

ففى طريق رحلته توقف فى كيلوا وأرغم السلطان على التعهد بدفع مبلغ سنوى لملك البرتغال . وفى العام التالى جاء قائد برتغالى آخر يدعى روى لورانزو رافاسكو وظل يبحر فى المياه المطلة على جزيرة زنجبار لمدة شهرين ، واستولى خلال هذه الفترة على عشرين من السفن الشراعية المحملة بالعاج ، وأصداف السلاحف ، والشمع والحرير والمنسوجات القطنية . وحاول حاكم زنجبار الذى ساءته تلك الغطرسة مقاومة البرتغاليين بتجهيز كل مدافعه والاستعداد بجيش من أربعة آلاف مقاتل . لكن رافاسكو تغلب عليه بسفنه المجهزة بالمدافع ، وأرغمه على توقيع تعهد بدفع ١٠٠ من العملة الذهبية (تساوى فى ذلك الحين ٨٧ استرلينيا) و ٣٠ من قطعان الماشية سنويا .) وفى عام ١٥٠٥ ذهب حاكم الهند البرتغالى دون فرانسيسكو دا لميدا إلى كيلوا وهو فى طريقه إلى الهند

وحيث أن السلطان لم يدفع المبلغ الذى تعهد بدفعه لفاسكو دى جاما فإن دون فرانسيسكو دالميدا أنزل ٥٠٠ من رجاله إلى كيلوا وأحرقوها. كما عزلوا الحاكم وعينوا بدلا منه رجلا يدعى محمد أنكونى .

ولم يجد سكان كيلوا خيارا سوى الموافقة على أن يدفعوا سنويا ٢٠٠٠ من العملة الذهبية والاعتراف بسيادة ملك البرتغال عليهم . ثم مضى ألميدا إلى ممباسا حيث أرغم حاكمها على الاستسلام . ولما رفض قصف ألميدا

المدينة وأحرقها . وفى نفس العام بدأ البرتغاليون بناء قلاع من الحجر فى كيلوا وسوفالا . وأرغموا سلطان لامو على الاستسلام فى العام التالى، ودفع ضريبة سنوية لهم .

وفى عام ١٥٠٩ عين ملك البرتغال ، دون كوارت دى نموس حاكما على جميع الممتلكات البرتغالية فى أفريقية والجزيرة العربية . ثم زاد الحاكم الجديد جزر مافيا وبيمبا وزنجبار من أجل جمع المبالغ التى لم يدفعها الأهالى . وأذعن سكان مافيا . لكن أهالى بيمبا لجأوا إلى ممباسة وأخذوا معهم معظم ما يملكون . كذلك قاومت زنجبار الحاكم . فقام البرتغاليون بالاستيلاء على زنجبار ونهبها ، وأرغموا سكانها على الفرار إلى الأدغال .

وكما اتضح بعد ذلك . وفى وقت قصير نسبيا — فإن جميع المدن الساحلية الهامة قد وقعت تحت سيطرة البرتغاليين ، وأنها أرغمت على دفع الأتاوة السنوية لملك البرتغال . ودرج البرتغاليون على الإبقاء على السلاطين المحليين كحكام إسميين طالما أنهم ينفذون سياسة البرتغاليين ، ويواظبون على دفع المبلغ المقرر عليهم سنويا .

وقد وقعت أحداث عديدة فى القرن السادس عشر على الساحل الشرقى لأفريقية بعد أن جعل البرتغاليون من أنفسهم سادة المنطقة . ولم تخضع مدينة ممباسة سلميا لحكم البرتغاليين وقد سببت لهم متاعب كثيرة . وكانت ماليندى من ناحية أخرى على علاقة طيبة بالبرتغاليين منذ وصول فاسكو دى جاما ، وظلت كذلك زمنا طويلا خلال سيطرة البرتغال على شرق أفريقية . كذلك أصبحت جزيرة زنجبار على علاقة صداقة بهم ، وبمرور الوقت استثنيت من دفع الضريبة السنوية . بينما ظلت جزيرة بيمبا على عداء مستمر إزاءهم ، وكانت تؤيد شعب ممباسة فى انتفاضاته ضد الحكم البرتغالى .

وعين مسئول برتغالي يدعى « نونودا كونها » حاكما عاما في الهند عام ١٥٢٨ ، وقد توقف وهو في طريقه لتولى منصبه في زنجار حيث تلقى عدة شكاوى من الأهالى عن استمرار إثارة جيرانهم في ممباسة للمتاعب ، وقيامهم بأعمال عدوانية .

وقد قرر « نونودا كونها » في الحال أن يلقن شعب ممباسة درسا قاسيا ، فشن هجوما على ممباسة . بمساعدة قوة من الجنود المحليين ، قدمهم إليه حاكما زنجبار وماليندى ، وأرغمت ممباسة في النهاية على الاستسلام ، وفرض على شعبها ضريبة سنوية كبيرة من الذهب .

وقد حدث بعد ذلك عندما علم حاكم ممباسة بمرض الحاكم البرتغالى أن تصور أنه يمكنه تأجيل تنفيذ الأوامر التى كان الحاكم البرتغالى قد أصدرها ، فغضب نونودا كونها ، وأحرق مدينة ممباسة ، ودمر مزارع جوز الهند بها .

ثم استقل سفينته وأبحر إلى الهند ، وقد أدت هذه العقوبة إلى استسلام شعب ممباسة للسيادة البرتغالية ، ولم تعد ممباسة مصدر متاعب للبرتغاليين خلال فترة طويلة بعد ذلك .

وخلال السنوات الخمس التالية حكم البرتغاليون كل المنطقة الساحلية من باراوا وحتى كيب كورينتز بدون أن يواجهوا أية متاعب . وكان حكمهم يتسم بالطغيان والقوة ، ولذلك كرههم الأهالى كراهية شديدة . وتعود الأهالى أن يطلقوا على الحاكم البرتغالى اسم « عفريت » (شيطان) .

* * *

ولم يتحمل سكان المنطقة الساحلية ، الحكم البرتغالى طويلا ، فقاموا بالثورة على طول الساحل ، وتوالت ثوراتهم حتى نهاية القرن السادس عشر ، وفي عام ١٥٨٦ وصل إلى شرق إفريقية قرصان تركى يدعى على

بك ، وزعم أنه موفد من سلطان تركيا ليخلص مسلمى شرقى أفريقية من طغيان الحكم البرتغالى . واستقبله حكام كيزمايو ، وفازا ، ولامو ، وممباسة ، أحسن استقبال . وقاتل البرتغاليين وطردهم من معظم مستوطناتهم . وبعد ذلك أبحر إلى البحر الأحمر ، حاملا معه قدراً كبيرا من الغنائم ، وخمسين أسيرا برتغاليا .

وقام حاكم ماليندى — الذى كان يتعاون مع البرتغاليين — بإبلاغ نائب حاكم الهند فى الحال بما جرى ، فأقلع أسطول برتغالى مكون من ١٨ سفينة فى العام التالى ، من جوا لمعاقبة سكان المدن التى شاركت فى ذلك التمرد .

وفى عام ١٥٨٩ عاد على بك إلى شرقى أفريقية ، واستقبل فى ممباسة حيث بدأ فى الأعداد لحملة ضد مدينة ماليندى . وعندما علم نائب الحاكم فى الهند بعودة على بك ، أرسل أسطولا من عشرين سفينة إلى ممباسة لمنع تكرار التمرد .

وفى هذه الفترة نشأ موقف غير عادى فى ممباسة . فقد وصلت من داخل القارة قبيلة من المتوحشين تسمى وازيمبا . وهم قبيلة من أكلة لحوم البشر تعيش جنوب نهر زامبيزى . وقد ظلت لعدة سنوات تتنقل فى اتجاه الشمال على طول الساحل ، وتخرب المدن التى تمر بها . وقد استولت فى عام ١٥٨٧ على كيلوا ، وبعد تدميرها أكل أفرادها معظم الذين وقعوا فى أسرهم . وواصلت تقدمها على طول الساحل حتى وصلت إلى ممباسة قبيل وصول الأسطول البرتغالى الذى أرسل لإخماد التمرد الذى دبره على بك . ولذلك وجد سكان ممباسة أنفسهم بين نارين ، فإلى جانب المدينة على البر يتربص بهم الوازيمبا ، ومن ناحية البحر يرسو الأسطول البرتغالى .

ووجد الوازيمبا صعوبة فى دخول المدينة بسبب تحصيناتها . ولكن الأهالى سمحوا لهم فى النهاية بالدخول بعد أن أقنعوهم بأنهم سيقاتلون معهم

ضد البرتغاليين . لكنهم ما إن دخلوا المدينــة حتى انقلبوا على سكانها وذبحوهم . وألقى الذين استطاعوا الهرب ، بأنفسهم فى البحر ليقضى عليهم البرتغاليون الذين كانوا فى انتظارهم . ووقع على بك نفسه فى الأسر ونقل إلى البرتغال .

ثم واصل الوازيمبا تحركهم شمالا وهاجموا ماليندى ، لكنهم هزموا على يد البرتغاليين ، وقضى عليهم تماماً . فقد ساعد الواسيجيجو «البرتغاليين ضد الوازيمبا ، وهم قبيلة أخرى بدائية جاءت إلى ماليندى من المناطق الداخلية عام ١٥٧١ .

ولم تكن جزيرتا بيمبا وزنجبار قد تعرضتا لمتاعب من الوازيمبا ، كما لم تنضم زنجبار للتمرد الذى دبرته ممباسة .

وفى عام ١٥٨٧ ذبح سكان بيمبا فى ليلة واحد جميع البرتغاليين المقيمين فى المدينة . رجالا ونساء وأطفالا .

ولقى رئيسهم - الذى تعاون مع البرتغاليين - نفس المصير ، لكنه تمكن من الهرب فى آخر لحظة إلى ماليندى .

وفى نفس الوقت — ورغم أحداث عام ١٥٨٩ الرهيبه — فإن سكان ممباسة استمروا فى إثارة المتاعب للبرتغاليين وهو مادفع البرتغاليين إلى مهاجمة ممباسة مرة أخرى عام ١٥٩٢ ، وتعيين حاكم ماليندى سلطانا على ممباسة . وقرر البرتغاليون اتخاذ ممباسة عاصمة لممتلكاتهم فى شرق إفريقية إدراكاً منهم لأهميتها وتحصيناتها . وقرروا فى عام ١٥٩٣ بناء قلعة حصينة سميت قلعة المسيح . ووصل أسطول برتغالى إلى ممباسة للمساهمة فى العمل ولمواجهة أى اضطرابات .

وفى حوالى هذه الفترة زارت أول سفينة تجارية بريطانية المحيط الهندى . وبذلك لم يعد البرتغاليون حكاماً بلا منازع يتمتعون بأرباح التجارة ، رغم

أنهم كانوا أول الأوربيين الذين يقيمون تجارة بحرية ضخمة مع الشرق .

وبينما كان القـــرن السادس عشر يوشك على الانتهاء ، فإن الهولنديين والفرنسيين والإنجليز بدأو يظهرون فى الشرق كمنافسين خطرين للبرتغاليين .

وفى عام ١٦٠٠ شكل عدد من تجار لندن الأثرياء شركة الهند الشرقية بغرض التجارة مع الشرق . وكانوا قد بعثوا قبل ذلك ببضع سنوات فى عام ١٥٩١ بعثة إلى جزر الهند الشرقية لاستطلاع إمكانيات التجارة مع تلك المناطق . وكانت هذه البعثة تتكون من ثلاث سفن . إحداها تسمى « اذوارد بونا فينتير » ويقودها سير جيمس لانكستر ، ووصلت زنجبار فى ٧ نوفمبر ١٥٩١ ، وظلت هناك حتى ١٥ فبراير ١٥٩٢ ، ثم واصلت رحلتها إلى جزر الهند الشرقية وقد أعجب الزوار الإنجليز بخصوبة أرض زنجبار وبكرم شعبها .

وبالطبع لم يكن البرتغاليون سعداء بوصول أوربيين آخرين إلى الساحل وإلى مياه المحيط الهندى ، حيث كانوا يرغبون فى بقاء كل تجارة الشرق فى أيديهم . ولذلك حاولوا أن يحرضوا السكان ضد الانجليز باتهامهم بالوحشية ، وبأنهم يأكلون أسراهم . لكن هذه الأكذوبة لم تحقق الغرض منها ، فخلال إقامة الزوار الانجليز فى زنجبار كانت تصرفاتهم ودية مع الأهالى .

وشهدت بداية القرن السابع عشر ، ظهور عدد من السفن الإنجليزية فى أماكن مختلفة على طول الساحل وكانت فى طريقها إلى الهند . وفى عام ١٦٠٨ وصلت سفينة إنجليزية اسمها « أتشينسيون » إلى بيمبا للتزود بالماء ، واستقبلها الأهالى فى البداية بالود ، لكنهم — بسبب تحريض البرتغاليين — انقلبوا عليها وهاجموا بعض تجارتها أثناء تزودهم بالماء .

وفى العام التالى وصلت سفينة انجليزية أخرى تسمى « يونيون » إلى

زنجبار . وعومل ركابها معاملة جافة من البرتغاليين . وأعتقل البرتغاليون ثلاثة من بحارتها كانوا قد وصلوا إلى الشاطئ فى قارب صغير . وأمام هذا التطور غير المتوقع هرب الباقون بالقارب إلى السفينة .

وكان واضحا من سلوك البرتغاليين أنهم باتوا منزعجين للغاية من وصول أعـــداد متزايدة من السفن الانجليزية فى طريقها إلى الهند . ومع بداية القرن السابع عشر بدأت سيادة البرتغاليين على الشرق تتعرض للتهديد .

– ٦ –

البرتغاليون فى عمان

ورأينا كيف وصل فاسكودى جاما إلى كالكتا فى الهند ، وكيف أرسل ملك البرتغال ، فرانسيسكو ليحكم الهند . وكان البرتغاليون قبل وصولهم إلى الهند حكاماً على المستوطنات الواقعة على امتداد ساحل شرقى إفريقية . وكان اهتمامهم الأساسى فى ساحل شرق افريقية هو أن تكون لهم موانى يتوقفون بها أثناء رحلاتهم الطويلة إلى الهند ، للراحة ، والحصول على الماء والطعام ، والقيام – إن أمكن – بقدر من التجارة . لكنهم كانوا أكثر اهتماما بالتجارة مع الدول الأكثر ثراء فى الشرق . وبعد رحلات متكررة خلال فترة تتراوح بين عشر وخمس عشر سنة ، جعلوا من أنفسهم سادة على المحيط الهندى ، ولم يكن ذلك بالأمر اليسير بالنسبة لهم ، لأن المحيط الهندى كان وقتئذ تحت سيطرة العرب وبعض الدول الشرقية .

ولما كان حاكم كلكتا لا يشعر بود نحو البرتغاليين ولا يطيق رؤيتهم فى بلاده ، فإنهم مضوا جنوباً فى الهند ووصلوا كوتشين حيث شيدوا قلعة بها . ومن كوتشين هاجموا السفن العربية فى بحر العرب . وفى عام ١٥٠٩ قابل ألميدا أسطولا من السفن العربية والمصرية فهزمه . وبذلك استولى على تجارة المحيط الهندى من العرب وأصبحت بعدها فى يد البرتغاليين .

وقام ألفونسو دالبوكيرك – الذى عين نائباً للملك فى الهند بعد ألميدا – بالجهد الأكبر لتحويل البرتغال إلى قوة تجارية رئيسية فى الشرق . واختار أماكن ليقيم فيها البرتغاليون قلاعاً لحماية سفنهم على طرق التجارة

الرئيسية ، كما تساعدهم هذه القلاع على منع العرب من استخدام تلك الطرق .

وجدير بالذكر أن العرب تبادلوا التجارة فى الماضى مع فارس والشرق الأوسط عن طريق منطقة الخليج ، ومع مصر عن طريق البحر الأحمر . ولذلك أراد البوكيرك أن يضع حداً لتلك التجارة ، حتى تحتكر السفن البرتغالية نقل السلع عن طريق رأس الرجاء الصالح .

وتنفيذا لتلك الخطة استولى أولا على هرمز ، الواقعة عند مدخل الخليج ، ثم استولى على سقطرة فى خليج عدن ، وبعد أن استولى عليهما تأكد له أن السفن العربية لن تستطيع استخدام الخليج والبحر الأحمر للوصول إلى موانى الشرق الأوسط من المحيط الهندى .

ومن هرمز توجه البوكيرك إلى عمان ، وعندما وصلها عام ١٥٠٧ (ويذكر بعض المورخين أن ذلك حدث عام ١٥٠٨) أحرق أسطولا للصيد فى رأس الحد ، ثم هدد سكان مدينة قلهات الذين دانوا له ، فقد كانوا غير مجهزين للدفاع عن أنفسهم .

وقد أظهر سكان قريات استياءهم من الأعمال الوحشية التى ارتكبها البوكيرك ، فرد على موقفهم هذا باقتراف مزيد من الفظائع ، وحرق المدينة ، ودمر معالمها ، ثم غادرها إلى مسقط ، وقد أثارت اهتمامه بمزارعها وحدائقها وأسواقها ، التى كانت تزخر بمختلف السلع ، ومن ذلك الوقت أعلنت مسقط كجزء من مملكة هرمز البرتغالية .

وقد وصف البوكيرك نفسه مدينة مسقط وأبدى إعجابه بها وبروعتها ، وقرر إخضاعها لسلطان البرتغال ، وفرض عليها جزية سنوية .

وقبل أن يبدأ التفاوض حول مطالبه غير رأيه بسرعة وأمر رجاله بنهب المدينة وتدمير كل السفن الراسية فى مينائها . وتعرض الأهالى للقتل ،

أما الذين بقوا منهم على قيد الحياة فقد قطعت آذانهم وأنوفهم ، ثم تقدم البوكيرك نحو صحار ، وخور فكان ومنها إلى هرمز حيث استولى عليها في أكتوبر ١٥٠٧ .

وأقام البرتغاليون في الفترة من ١٥٠٧ – ١٦٥٠ امبراطورية تجارية قوية في منطقة المحيط الهندي ، وكان اهتمامهم الأساسي ينصب على التجارة ، ولم يكن لديهم اهتمام بالسكان المحليين للمدن الساحلية التي أخضعوها . وكلما إلتزم الناس الهدوء تركوا ليعيشوا في سلام ، ولكنهم كانوا يتعرضون لعمليات قمع إذا أثاروا المتاعب .

ولم يكن ساحل عمان مركز النشاط التجاري البرتغالي ، ولكن كان جزءاً هاماً من تلك العمليات ، وقد أقام البرتغاليون خلال إقامتهم في المنطقة أربع قواعد رئيسية على طول الساحل في قريات ، ومسقط ، وقلهات ، وصحار . واعتبرت قاعدة مسقط أكثرها أماناً ، ولذلك أصبحت مركز نشاطهم كله . وأصبحت هرمز العاصمة الإقليمية .

وشيدت مجموعة من المباني استكملت حوالى عام ١٥٣١ واحتلت مساحة كبيرة قرب مكتب الجمارك في مسقط ، في مواجهة قاعة الميراني وسميت بالجزيرة ، وكانت تضم قصر الحاكم ، وثكنات عسكرية ، ومخزنا للسلاح ، ومصنعاً ، وكنيسة . وكانت مركزاً للادارة البرتغالية . وقد ظل أحد هذه المباني قائماً ، ويعرف باسم بيت جريزة ، وقد تم هدمه وإعادة بنائه على نفس النمط الهندي للمحافظة على شكله التاريخي . ويقال إن هذا المبنى قد استخدم كقصر مؤقت للسيد سلطان بن أحمد من عام ١٧٩٣ حتى عام ١٨٠٠ ، عندما استكمل بناء قصره . ويوجد الآن فوق نفس موقع هذا القصر ، مقصر الجديد الذي بناه جلالة السلطان قابوس بن سعيد .

وفي عام ١٥٢٧ بدأ البرتغاليون في بناء قلعتي الجلالي والميراني .

وقد تم تجديد قلعة الجلالى عام ١٥٨٧ والميرانى عام ١٥٨٨ حيث اتخذتا شكلهما الحالى . وقد بنى مليشوار كالكا قلعة الجلالى وكانت تسمى قلعة سان جواز ، وبنى دون مانويل دى سوزا كوتينهو قلعة الميرانى التى كانت تسمى قلعة كابتن .

وقد توفى البوكيرك عام ١٥١٥ لكن البرتغاليين لم يتوقفوا . فقد تحركوا بحراً فى إتجاه الشرق ووصلوا إلى الصين واستولوا على جزيرة ماكاو عام ١٥٥٧ .

وفى القرنين السابع عشر والثامن عشر حدث تدفق للتجار الأوربيين الآخرين من هولندا وبريطانيا وفرنسا ، وبدأوا يهتمون بمنطقة الخليج .

– ٧ –

إنهيار البرتغال

مع اقتراب نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر بدأت قوة البرتغاليين فى الشرق فى الأفول . وأوجد ظهور دول أوربية أخرى فى المحيط الهندى تحدياً للاحتكار الذى كان البرتغاليون يتمتعون به من قبل فى هذه المنطقة . يضاف إلى ذلك أن الأمراض الاستوائية والمعارك المستمرة التى أدت إلى تناقص عدد المستوطنين البرتغاليين فى المنطقة إلى الحد الذى أصبح فيه من العسير وجود ما يكفى من الرجال لحراسة ممتلكاتهم الممتدة على مناطق واسعة .

وكانت الكراهية العنيفة لهم من الناس الذين أخضعوهم ، سبباً آخر عجل بانهيار البرتغاليين . ففى القرن الأول من ظهور سلطتهم فى الشرق ، ارتكبوا كثيراً من الأعمال الوحشية ، والغدر بالناس ، والاستيلاء على أموالهم ، ولم يفعلوا شيئاً لاكتساب ود أو احترام رعاياهم . ولم يكن غريبا – على ضوء قسوتهم وغطرستهم – أن ينتهز رعاياهم أول فرصة متاحة للتمرد على حكمهم .

وجاءت أول ضربة عنيفة لحكم البرتغاليين فى عام ١٦٢٢ عندما طردهم الفرس من هرمز . وكانت جزيرة هرمز التى أخضعوها عام ١٥١١ ذات أهمية بالغة لهم لأنها مفتاح الدخول إلى منطقة الخليج .

وجاء طرد البرتغاليين من هرمز على مرحلتين ، الأول : تولى الشاه عباس العرش فى فارس عام ١٥٨١ ، والثانى حدوث أول اتصال لبريطانيا مع فارس من خلال بعثة شيرلى عام ١٥٩٨ . وقد أعقب هذه البعثة منح شركة الهند الشرقية فى عام ١٦٠٠ ، امتيازاً يسهل لها إقامة مصالح

بريطانية فى منطقة المحيط الهندى . وقد نتج عن اتصال البريطانيين مع الشاه عباس منح بريطانيا مركزا تجارياً فى جزيرة جاسك على ساحل هرمز عام ١٦١٦ .

وكان الشاه عباس مهتما بطرد البرتغاليين من هرمز .

بينما كان اهتمام بريطانيا منصبا على توسيع مصالحهم التجارية . وقد وحد الجانبان قواتهما عام ١٦٢٢ ونجحا فى طرد البرتغاليين من هرمز . وامتنعت شركة الهند الشرقية عن مشاركة الفرس فى مزيد من الغزوات خاصة ضد مسقط ، ومضى الشاه وحده فقام بالاستيلاء على خور فكان وصحار ، وأنشأ قاعدة جديدة فيما يعرف الآن ببندر عباس التى سماها على اسمه .

وامتد طرد البرتغاليين من هرمز بسرعة إلى الشرق ، وقدشجع شعوبا أماكن أخرى على التمرد عليهم .

ولذلك وقعت انتفاضات خطيرة عام ١٦٣١ فى كل الدول الساحلية فى شرقى إفريقية . وبدأت الثورة فى ممباسة التى كانت خاضعة فى ذلك الوقت للسلطان يوسف . وكان هذا السلطان قد تعلم فى جوا على يد البرتغاليين ثم تحول إلى اعتناق المسيحية على أمل أن يتمكن من إبقاء ممباسة موالية للبرتغاليين بعد تعيينه سلطانا وذلك للحفاظ على مركزه . لكن سلطان ممباسة بدأ فى التمرد على الحاكم البرتغالى لممباسة بسبب إجراءات القمع الوحشية التى يتخذها . وفى عام ١٦٣١ حدث نزاع خطير بين الحاكم البرتغالى والسلطان يوسف ، فجمع فى السر ٣٠٠ من الجنود الوطنيين واقتحم القلعة وانهال على الحاكم طعنا حتى الموت . وانطلق من القلعة إلى الحى البرتغالى فى المدينة وأحرقه تماما وقتل جميع السكان البرتغاليين . أما الذين نجوا من الموت فإنهم لجأوا إلى دير مجاور واحتموا به لمدة سبعة

أيام . ثم وافقوا على الاستسلام للسلطان يوسف بشرط المحافظة على حياتهم. ولكن ما إن بدأوا فى مغادرة الدير حتى قتلهم جنود يوسف . وبذلك فقد حوالى مائة برتغالى حياتهم .

وعندما ذاعت أنباء هذا الحادث ، بدأت ثورة عامة ضد البرتغاليين على طول الساحل . وأخذت بيمبا دورا رئيسيا فى هذه الثورة. وفى الوقت نفسه وصلت الأنباء المفزعة إلى نائب الملك فى الهند ، الذى أسرع بإرسال أسطول لمعاقبة المتمردين . ورسا الأسطول فى ممباسة فى يناير ١٦٣٢ ، وبدأ فى محاصرة المدينة . وبعد حصار إستمر ثلاثة شهور ، بدون أن يحقق أى نتيجة ، قرر القائد البرتغالى العودة إلى الهند لتجهيز قوة أكبر . وترك سفينتين لحراسة مدخل الميناء . وبعد رحيله إستولى يوسف على السفينتين .

ولأن يوسف كان يعرف أن البرتغاليين سوف يعودون بقوة أكبر ، فإنه فر الهرب . ومن ثم قام بتجريد القلعة من تجهيزاتها ودمر المدينة، وأبحر إلى الجزيرة العربية . وطوال العامين اللاحقين سبب يوسف للبرتغاليين متاعب مستمرة بمهاجمة ونهب مستوطناتهم فى مدغشقر ، وجزر الكومور ، وفى داخل القارة .ولكنه قتل فى نوفمبر ١٦٣٨ عندما كان يقاتل ضد بعض العرب وكان هذا آخر سلاطين ممباسة .

وفى نفس الوقت عاد البرتغاليون إلى ممباسة وعاقبوا المتمردين على طول الساحل بقوة بالغة . وفى عام ١٦٣٥ كان يبدو أن البرتغاليين قد أعادوا فرض سيطرتهم على ساحل شرقى إفريقية . لكن انتصارهم لم يدم طويلا ، لأن عنصرا جديدا — هم العمانيون العرب — قد بدأ يظهر على المسرح هذه المرة فقضى نهائياً على سيطرة البرتغاليين على المنطقة .

ولعب شعب عمان دوراً هاماً فى طرد البرتغاليين من عمان وكذلك من الساحل الشرقى لإفريقية .

إن الروح الاستقلالية لدى العمانيين قد جعلتهم ينظرون إلى سيطرة البرتغاليين كتجربة مريرة ، فكانوا يتلهفون إلى الفرصة التى يستعيدون فيها استقلالهم .

ولذلك فقد بدأت بعد هزيمة البرتغاليين فى هرمز عام ١٦٢٢ موجة نشطة ضد الأجانب . وقد حققت هذه الموجة هدفها أثناء حكم الإمام سلطان بن سيف ، وبعد ١٥٠ عاما من السيطرة البرتغالية ، انتقم العمانيون لأنفسهم فى النهاية وذلك فى ٢٣ يناير ١٦٥٠ .

وقد خلف الإمام سلطان بن سيف عمه عام ١٦٤٩ ، وكان عمه قد نجح فى مساعيه لطرد للبرتغاليين من الساحل العمانى . وعندما انتخب الإمام سلطان إماما ، فإنه قرر إنهاء المهمة بطرد البرتغاليين من مسقط . ولذلك خرج على رأس جيشه من عاصمته الرستاق وقام بعدة هجمات غير ناجحة على المدينة ، بسبب تعزيز البرتغاليين لدفاعاتهم فى مسقط بعد طردهم من هرمز .

ونصح تاجر هندى يقيم فى مسقط يدعى ناروتيم الإمام سلطان بن سيف بشن هجومه فى أحد أيام الأحد ، وكانت لناروتيم إبنة يرغب القائد البرتغالى فى الزواج منها ، ولم يجد مهربا من إتمام هذا الزواج سوى طرد البرتغاليين من البلاد . ولذلك كتب خطابا للامام سلطان يقترح عليه القيام بهجومه فى يوم أحد ، وقام فى الوقت نفسه باقناع القائد البرتغالى لحامية مسقط ، بأن يفرغ صهاريج المياه فى قلعتى الجلالى والميرانى ، وكذلك نقل البارود والذخيرة من مخازنها ، على أساس ضرورة تجديد كل شىء فى القلاع ، ما دام المتوقع تعرضها لحصار طويل .

وفى يوم الأحد ٢٣ يناير ١٦٥٠ شن سلطان بن سيف هجوما عنيفا ، واكتشف أن جميع الجنود البرتغاليين كانوا سكارى ، ولذلك استولى بسهولة على القلعتين .

لكن ضابطا برتغاليا يدعى كابريتا قام رغم كونه مخمورا بهجوم مضاد على رأس مجموعة صغيرة من الجنود ، لكنه وجد نفسه محاصراً بالأعداء ، وتقهقر إلى سوق القطن ، حيث وجد نفسه معرضا للهجوم بالرماح - والبيض الفاسد - كما قيل ، وكانت تلك نهاية البرتغاليين فى عمان .

والإمام سلطان بن سيف ينتمى إلى أسرة اليعارية ، وشهدت المنطقة فى عهده تكثيف المصالح البريطانية .

وعقب نجاحه فى طرد البرتغاليين عام ١٦٥٠ ، استقبل الكولونيل رينزفورد الذى أرسلته شركة الهند الشرقية للتفاوض على عقد معاهدة لإقامة وجود للشركة هناك ، لكن المعاهدة لم توقع بسبب وفاة رينزفورد ..

وغير الإمام سلطان رأيه بعد ذلك وقرر عدم السماح بأى وجود استيطانى أوربى فى مسقط . واتخذه خلفاؤه من بعده نفس الموقف .

وركز الإمام سلطان بن سيف على الاهتمام بالبحر . وقاد عمان لأول مرة إلى طريق الرخاء الوافر داخليا وخارجيا . وبدأ فور قيامه بطرد البرتغاليين ، ببناء بحرية قوية .

وعندما وصلت أنباء نجاحه إلى شرقى إفريقية ، قرر شعب ممباسة طلب المساعدة من الإمام سلطان بن سيف لطرد البرتغاليين من ممباسة . وكان طبيعيا أن يتوجهوا إليه بهذا الطلب ، ليس لأنهم مسلمون فحسب ، ولكن أيضاً لأن بلادهم قد عانت الكثير تحت الحكم القمعى للبرتغاليين .

ووافق الإمام سلطان على طلبهم بترحاب ، وأرسل فى عام ١٦٥٢ أسطولا صغيرا من مسقط لمساعدة شعب شرقى إفريقية فى جهودهم لطرد البرتغاليين . وقد هاجم وأحرق المستوطنات البرتغالية فى زنجبار وباتى ، وحدثت على ضوء نجاحه ثورات عامة فى كل المدن الساحلية ضد حكم البرتغاليين . ولكن البرتغاليين صمدوا لبعض الوقت وتمكنوا من سحق تلك الثورات .

وعاد شعب الساحل يطلب من الإمام في مسقط إرسال أسطول آخر لمساعدتهم . وفي عام ١٦٦٠ عبر الأمام سلطان مرة أخرى المحيط الهندى ، وبعد حصار طويل نجح في الاستيلاء على ممباسة من البرتغاليين . ولم يكن ممكنا أن يبقى الأمام سلطان بن سيف طويلا في ممباسة وكان عليه أن يعود إلى عمان ، حيث كانت الاضطرابات قد اشتعلت هناك في غيابه . وكان ذلك تطورا مؤلما لشعب ممباسة ، لأنه ما إن غادر الإمام سلطان بلادهم حتى عاد البرتغاليون واستولوا على ممباسة من جديد ، وأنزلوا أشد العقاب بالأهالى لتمردهم . وأدى ذلك إلى زيادة كراهية الأهالى للبرتغاليين بأشد مما كانت ، وصمم الأهالى على انتهاز الفرصة المناسبة لتنظيم ثورة جديدة .

وفي نفس الوقت مات الأمام سلطان بن سيف في عمان عام ١٢٨٠ . بعد حكم دام ١٩ عاما . وخلفه إبنه سيف بن سلطان الذى تولى الحكم من عام ١٦٨٠ – ١٧١١ . وورث الأمام سيف عن أبيه روحه الميالة للقتال ، ومن ثم فقد أكمل ما بدأه أبوه . وعاد سكان شرقى أفريقية يتصلون بالإمام سيف طالبين مساعدته بصفة عاجلة ضد البرتغاليين مثلما فعل والده ، وقد عمل الأمام سيف على توسيع حجم الأسطول العمانى الذى تكون من ٢٨ سفينة . وقيل إن أكبر سفنه كانت تحمل عدداً من المدافع ، كان بعضها قد تم الاستيلاء عليه من البرتغالين .

وقد وافق الإمام على مساعدة أهالى الساحل . وقام بنفسه في مارس ١٦٩٦ بحصار ممباسة . واستمر الحصار ٣٣ شهرا ، وفي ديسمبر ١٦٩٨ استولى الأمام سيف على قلعة يسوع ، وبذلك جعل من نفسه سيد جزيرة ممباسة .

وقد نجح في العام التالى في طرد البرتغاليين من جزيرتى بيمبا وكيلوا ، كما حاول أن يأخذ من أيديهم موزمبيق التى كانت أقوى قلاعهم على الساحل الشرقى الإفريقى على الإطلاق . لكنه لم ينجح في ذلك ، وظلت

موزمبيق فى أيدى البرتغاليين حتى بداية السبعينات من القرن العشرين عندما استقلت بعد الثورة التى وقعت فى البرتغال نفسها .

وفى عام ١٧٠٠ بالتحديد وبعد حملات عسكرية متكررة ، أصبح خط الساحل بأكمله من مقديشيو ثم جنوبا إلى كيلوا تحت سيطرة عمان ، ورغم محاولات البرتغاليين المتكررة لاستعادة سلطتهم هناك ، إلا أنهم لم يحققوا أى نجاح .

واضطر الإمام سيف للعودة إلى عمان ، حيث اهتم بتنفيذ عدد من المشروعات العامة ، خاصة إعادة تشغيل قنوات الرى (الأفلاج) ، وتشييد قنوات جديدة ، حيث كانت الحياة فى عمان تعتمد على هذه الأفلاج فى الزراعة .

وفى عهده أصبحت عمان دولة قوية — ورغم أن أمجاده دفنت معه عند وفاته عام ١٧١١ ، لكن بقيت عشرات الألوف من أشجار النخيل التى زرعت فى عهده ، مصدراً لرخاء شعبه ..

وبالنسبة لشرقى إفريقية ، فقد أصبح حكم المدن الساحلية الهامة فى أيدى العرب العمانيين . فقد عين ناصر بن عبد الله المزروعى حاكما على ممباسة ، ووضعت زنجبار تحت حكم واحد من أسرة الحرث ، بينما عين أحد أفراد أسرة النباهنة واليا على جزيرة باتى ، وأصبحت بيمبا تحت حكم حاكم ممباسة .

— ٨ —

ظهور أسرة البوسعيد

شهدت عمان سلسلة من الحروب الأهلية والمنازعات القبلية على مدى سنوات فى أعقاب وفاة الإمام سيف بن سلطان .

وقد شجعت تلك الأحداث البرتغاليين على القيام بمحاولات جديدة لاستعادة ممتلكاتهم التى فقدوها على الساحل الشرقى لإفريقية . ومن ثم فقد نظموا حملة نجحت فى استرداد ممباسة عام ١٧٢٧ . لكن هذا النجاح كان قصير الأمد لأن العمانيين العرب قاموا بعد سنتين بطردهم من ممباسة وكذلك من أماكن أخرى على طول الساحل ، كانوا قد نجحوا مؤقتاً فى استعادة وجودهم بها .

وقد تفاقمت الاضطرابات فى عمان عندما عند تولى حفيد الإمام سيف بن سلطان ، الإمامة عام ١٧٢٨ ولم يستطع بسبب ضعفه وعدم نضجه — أن يمارس سلطاته ، وقد اتخذ قراراً غير حكيم ، بأن طلب من شاه فارس مساعدته فى إخماد الاضطرابات المحلية فى عمان .

وقد استجاب الشاه لطلبه ، وبدلا من أن يساعد الإمام الشاب ، فإنه قام بغزو عمان واستولى عليها ، وعامل الأهالى بأسلوب غير إنسانى .

ولم يحتمل شعب عمان سلوك الشاه ، فقرر أن أفضل سبيل لإنقاذ بلادهم من هذا الوضع السىء ، هو التخلص من ذلك الإمام الذى أثبت أنه ضعيف وغير جدير بمنصبه ، وانتخاب إمام جديد من أسرة مختلفة تماماً .

وفى عام ١٧٤٤ انتخب أحمد بن سعيد بن محمد البوسعيد إماماً . وحيث إنه أول إمام من عائلة البوسعيد ، فإنه يعتبر مؤسس أسرة البوسعيد التى

تحكم عمان حتى اليوم . ويستخدم أعضاء الأسرة الحاكمة لقب آل سعيد للتمييز بينهم وبين الأعضاء الآخرين من عائلة البوسعيد الذين لا ينتمون مباشرة للأسرة الحاكمة .

وكان منصب والى صحار هو آخر منصب يتولاه الإمام أحمد قبل تعيينه إماماً لعمان . وأثناء توليه صحار جمع جيشاً وقاتل الفرس الذين غزوا صحار عام ١٧٣٧ وأنزل بهم الهزيمة . وكان الإمام أحمد قد بدأ حياته العملية تاجراً ، وتم ترشيحه للإمام سيف بن سلطان اليعربي كشخصية تتمتع بالكفاءة والشجاعة وبعد النظر وقد أصبح بعدها — عندما حان الوقت — موضع سر الإمام ومساعده الأيمن فى الشئون التجارية .

وقد شجع الإمام احمد — عندما أصبح إماماً — التجارة ، واستعادت مسقط فى عهده وضعها السابق كمدينة مزدهرة ومركز تجارى . رغم أن عاصمته كانت مدينة الرستاق على بعد ١٥٠ كيلو متراً من مسقط .

وكانت تمثل موقعاً استراتيجياً لحفظ التوازن بين الساحل والداخل . وخلال فترة حكمه التى استمرت ٣٩ عاماً ، خاض حروباً طويلة للقضاء على التحديات التى واجهته من جهات عديدة ، خاصة من اليعارية ، ومن الغافرين وجاءته آخر التحديات من أنجاله أنفسهم — سيف وسلطان عام ١٧٨٢ قبل عام واحد من وفاته : وقد وقع القتال بينهما فى مسقط حيث قام الأب وأبناه بقصف كل منهما الآخر عبر الميناء : وكان الإمام أحمد يطلق نيرانه من قلعة الميرانى ، وأبناه يطلقان نيرانهما من قلعة الجلالى ، ويحتفظان بأخيهما الأصغر سعيد كرهينة . واستطاع سعيد الهرب ، فخفف الإمام أحمد من هجومه .

وقد توفى الإمام أحمد عام ١٧٨٣ وخلفه ثانى أبنائه سعيد ، لأن إبنه الأكبر هلال لم يكن أهلا للحكم لأنه كان ضريراً . وقد أثبت الإمام سعيد ابن أحمد كفاءته كقائد دينى ، لكنه فشل كحاكم ، ولذلك انتزع

إبنه حمد السلطة السياسية منه ، ونقل العاصمة إلى مسقط ، حيث تولى الحكم تحت لقب السيد ، وقد بقى والده فى الرستاق لا يزاول أية سلطة حتى وفاته ، وكان هذا فيما بين سنتى ١٧١١ و ١٨٢١م

ولقد رأينا أن الإمام عندما عاد من شرق إفريقية إلى عمان قد عين على المدن الساحلية الهامة فى شرق عمان حكاماً من العرب العمانيين . ونظراً إلى أن هؤلاء الحكام كانوا يدركون الأحوال المضطربة فى عمان ؛ ويعلمون أن الإمام غير قادر على التدخل فى شئون شرق إفريقية فقد رفضوا الاعتراف بسلطة الحاكم العمانى والخضوع له ، وجعلوا أنفسهم سلاطين مستقلين للمدن التى عينوا عليها .

ففى ممباسة كان الحاكم المزروعى القوى ، الذى ظل يحكم مستقلا لفترة طويلة ، قد فرض سيادته على كل الساحل الإفريقى من ماليندى فى الشمال إلى بانيانى فى الجنوب ، وكذلك على جزيرة بيمبا .

ومن ناحية أخرى فإن حاكم باتى الذى ينتمى إلى أسرة النباهنة قد رفض هو الآخر الخضوع لإمام عمان .

وقد ظلت عائلتا المزروعى فى ممباسة والنبهانى فى باتى فى حرب مستمرة ضد بعضهما البعض خلال جزء كبير من القرن الثامن عشر . وكانت كل منهما ترغب فى أن تكون لها السيادة على ساحل شرقى أفريقية . ومن ثم فقد عانى شعب الساحل بصفة مستمرة من المنازعات والمنافسات بين حكامهم العرب المختلفين ، ومن المشكوك فيه أن يكون الأهالى قد عاشوا فى ظلهم ظروفاً أفضل من الظروف التى كانوا قد شهدوها من قبل تحت سيطرة البرتغاليين .

لكن جزيرة زنجبار ظلت مع ذلك على ولائها لحاكم عمان خلال فترة الاضطرابات التى سادت ممباسة وبيمبا فى بقية الساحل .

وفى عام ١٧٤٦ أرسل الإمام أحمد بن سعيد مؤسس أسرة البوسعيد قوات إلى زنجبار لحفظ الأمن ومواجهة المزاريع فى ممباسة .

لكن الإمام أحمد لم يستطع مع ذلك زيارة ممتلكاته فى شرق أفريقية ، ولم يظهر الاهتمام النشط مرة أخرى بشئون شرقى أفريقية ، إلا عندما أصبح الإمام السيد سعيد بن سلطان حفيد الإمام أحمد بن سعيد حاكما على عمان فى عام ١٨٠٦ .

لقد تحدثنا عن سيرة وأعمال السيد سعيد فى الفصل السابق ، وعلينا الآن أن نرى كيف تصرف إزاء موقف الحكام العرب الذين لم يحافظوا على ولائهم لعمان .

ولقد كان اهتمام السيد سعيد مركزاً على حل المشكلات الداخلية فى عمان خلال العشرين عاماً الأولى من حكمه ، ولم يكن قادرا على إعطاء إهتمام أكبر لممتلكاته فى شرقى إفريقية ، رغم إدراكه التام للمشاكل التى سببها الحكام غير الملتزمين بسيادته فى المنطقة .

وقد قرر بمجرد استتباب النظام فى عمان ، أن يلقى بنظرة على هذه الحال غير المرضية إبتداء بممباسة .

وانطلاقاً من هذا القرار غادر مسقط فى بداية عام ١٨٢٨ على رأس أسطول كبير ، ووصل إلى ممباسة ، ومن هناك خاض معارك مع المزاريع انتهت بهزيمة الحاكم المزروعى الذى أذعن ووافق على توقيع معاهدة تعترف بسيادة السيد سعيد . ونتيجة لذلك ترك السيد سعيد ٣٠٠ من الجنود البلوش فى قلعة يسوع ، وأبحر هو إلى زنجبار حيث مكث هناك ثلاثة شهور . ومما يذكر أن زنجبار كانت موالية لحكام عمان منذ فترة طويلة ، ولذلك استقبل السيد سعيد هناك بحفاوة بالغة . وقد لفت انتباهه خصوبة أرض الجزيرة وموقعها الفريد على الساحل الشرقى . وربما بدأ يفكر أثناء

تلك الزيارة فى إمكان اتخاذ زنجبار عاصمة المستقبل لملكه فى شرقى إفريقية .

وغادر السيد سعيد زنجبار عندما بدأت الاضطرابات فى عمان ، بينما عاد المزاريع إلى مهاجمة ممباسة ومنعوا الطعام عن الجنود حتى أرغموهم على الاستسلام .

وخلال ثلاث سنوات أرسل السيد سعيد ثلاث حملات من مسقط ضد المتمردين من رعاياه فى ممباسة . واستطاع القضاء على التمرد هناك عام ١٨٣٧ . ووقع فى الأسر راشد بن سالم رئيس قبيلة المزاريع و٢٦ من أنصاره وحكم عليهم بالسجن المؤبد فى بندر عباس التى كانت تحت الحكم العمانى ذلك الحين . وبذلك عادت ممباسة لحكم السيد سعيد ولم تنشأ أى متاعب أخرى .

وفى عام ١٨٣٢ قرر السيد سعيد اتخاذ زنجبار عاصمة له والإقامة فيها ، وأدى ذلك القرار إلى نقل مقر السلطة ، فبدلاً من أن يحكم شرقى إفريقية من عمان فإنه بدأ يحكم عمان من شرقى إفريقية . . وقد اتخذ ذلك القرار رغم أن ممباسة وكيلوا كانتا فى ذلك الوقت أكثر أهمية من زنجبار — لكن السبب الرئيسى لاختياره يرجع إلى موقعها الرائع .

فهى تقع على مسافة بضعة أميال من الساحل الشرقى . وكانت زنجبار تتمتع بإمكانيات التحول إلى مركز رئيسى للتجارة فى شرقى أفريقية كلها ، وكان السيد سعيد شديد الاهتمام بتطوير التجارة فى تلك المناطق ، وكان يدرك أن هناك فرصاً طائلة للتجارة فيها . وقد أراد أن يقيم مراكز تجارية داخل أفريقية ، تبدأ من شرق زنجبار وتمتد إلى الداخل حتى الكونغو . وأدرك أن زنجبار سوف تصبح بحكم موقعها مكاناً للتجميع والتوزيع لمعظم السلع التى تأتى إلى الساحل من الداخل .

وكانت هناك عدة أسباب أخرى أملت على السيد سعيد اتخاذ زنجبار عاصمة له . فمدينة زنجبار بها موانى عميقة تصلح لرسو السفن الضخمة . كما أن الجزيرة بها موارد لا تنفذ من مياه الشرب النقية : لا مثيل لها على خط الساحل بأكمله . وكان يعرف أن ذلك سيجذب كثيراً من السفن المارة وهو ما ينعش التجارة . ثم إن زنجبار كانت منطقة خصبة جداً ، ولا شك أن ذلك كان له أكبر الأثر على السيد سعيد الذى كانت له اهتمامات كبيرة بالزراعة .

لقد ثبتت حكمة قرار السيد سعيد بوضوح قبل نهاية عهده . فان زنجبار التى كانت عبارة عن مجموعة صغيرة من الأكواخ يسكنها الأهالى الوطنيون قد تطورت بسرعة وأصبحت أضخم وأهم مدينة على ساحل شرقى أفريقية وشجع السيد سعيد العرب على استيطان زنجبار ، وتبعه الكثيرون الذين سرعان ما بدأوا فى التوغل إلى داخل أفريقية كتجار ومستكشفين . وبدأ عصر من الازدهار الكبير ، وانتعشت التجارة على الساحل بطريقة لم تشهدها هذه المنطقة من قبل . وكلما توغل التجار العرب أكثر فأكثر إلى الداخل ؛ كلما انتشر صيت ونفوذ حاكم زنجبار فى إفريقية . حتى أدى ذلك إلى ظهور مثل يقول : عندما يعزف أحد على المزمار فى زنجبار فإنهم يرقصون فى البحيرات » .

وفى عهد السيد سعيد بدأ ساحل شرقى إفريقية يجذب من جديد اهتمام الأوربيين بشكل جدى . وقد بذل السيد سعيد كل جهده لتشجيع التجار الأوربيين على الإقامة فى زنجبار ، وذلك بهدف تجارة ورخاء البلاد .

وفى عام ١٨٣٣ عقد معاهدة تجارية مع الولايات المتحدة الأمريكية ؛ وفى عام ١٨٣٧ افتتحت فى زنجبار أول قنصلية أمريكية ؛ وكان التجار الأمريكيون يشترون العاج والكوبال ؛ وجلود الحيوانات المدبوغة التى

كانت تصل من الداخل ، ويبادلون تلك السلع بالمنتجات القطنية الأمريكية والمعدات الحربية ، وقد أرسل السيد سعيد أول بعثة تجارية إلى نيويورك فى عام ١٤٨٠ برئاسة أحمد بن نعمان .

وفى عام ١٨٤١ افتتحت بريطانيا قنصلية لها فى زنجبار ، وكان الكولونيل همرثون ، من القوات الهندية ، هو أول قنصل بريطانى .

وفى عام ١٨٤٤ افتتحت قنصلية فرنسية ، كما عين فى زنجبار قناصل للبرتغال ، وإيطاليا ، وألمانيا والنمسا والمجر .

وقد حظيت الزراعة باهتمام شديد من السيد سعيد ، ويذكر له أهالى زنجبار دوره فى زراعة القرنفل ، التى يعتمد عليها أساساً رخاء الجزيرة .

ورغم أن شجرة القرنفل أدخلت إلى الجزيرة فى بداية القرن التاسع عشر ، فقد كان نفوذ السيد سعيد وراء زراعتها بطريقة منظمة وعلى نطاق واسع ، وكان الكثيرون فى ذلك الوقت يعتقدون أن السيد سعيد ارتكب خطأ بتشجيع إدخال زراعة القرنفل إلى زنجبار ؛ وأن سياسته ستؤدى إلى دمار كل من زنجبار وبيمبا . ولكن السيد سعيد الذى كان يتسم بالإصرار فى مواقفه لم يستمع إلى تلك الآراء المتشائمة واستمر فى خططه الشاملة لزراعة أشجار القرنفل فى زنجبار وبيمبا .

ويقال بأنه أصدر قرارا يقضى بزراعة ثلاثة اشجار قرنفل مقابل كل شجرة جوز هند ؛ وأنه قرر مصادرة المزارع التى لم تكن تمتثل لذلك القرار ، وعند وقت وفاته كان القرنفل قد أصبح ثالث أهم سلعة للتصدير فى زنجبار ، بينما فى الوقت الحاضر تنتج زنجبار وبيمبا تسعة أعشار الإنتاج العالمى من القرنفل ، وقد برهن ذلك على أن السيد سعيد كان محقا تماماً فى تشجيعه زراعة القرنفل

ولذلك سوف تبقى عمان وكذلك سيبقى العمانيون العرب .

وسيبقى السيد سعيد بصفة خاصة ، أثراً خالداً فى تاريخ زنجبار ٥

وبعد وفاة السيد سعيد تولى الحكم إبنه السيد ماجد من عام ١٨٥٦ إلى عام ١٨٧٠ م ثم خلفه السيد برغش من عام ١٨٧٠ إلى عام ١٨٨٨م ؛

وفى أثناء عهد السيد برغش هب على زنجبار إعصار رهيب دمر أشجار القرنفل ، فصمم السيد برغش ، بإرادته القوية ، على استعادة حالة الرخاء السابقة ؛ بزراعة القرنفل ، وعلى إدخال بعض التحسينات فى الحياة العامة للسكان ، فأنشأ خط أنابيب للمياه من نبع شيم شيم إلى المدينة ، مما وفر مياه الشرب النقية للأهالى ؛

ممباسة وقلعة يسوع

تعتبر ممباسة الآن مدينة مزدهرة ، وقد اتسعت تدريجياً منذ بدأت شعوب الشرق فى الملاحة التجارية بالاستعانة بالرياح الموسمية . ولم تقتصر فائدة ميناء كيليندينى على كينيا وحدها ، وإنما استفادت منه أيضاً أوغندا ، وتنزانيا اللتان استخدمتاه من أجل السلع المستوردة لموشى وأروشا اللتين تعتبران أقرب إلى ممباسة منهما إلى ميناء تانجا التنزانى . وممباسة جزيرة ترتبط بالبر عن طريق جسر ماكوبا كوزواى .

وقد لعبت هذه المدينة دوراً هاماً فى تاريخ الزوار الأول لشرق إفريقية ، خاصة الفرس والبرتغاليون ثم العرب الذين احتفظوا بساحل طوله عشرة أميال من كينيا ، وبميناء كيليندينى كامتداد للأراضى التابعة لزنجبار حتى السنوات الأولى من ستينات القرن العشرين عندما استقلت كينيا .

وقد أضافت قلعة يسوع فصلا جديداً إلى التاريخ الطويل لممباسة . وقد أنشأها البرتغاليون فى نهاية القرن السادس عشر ، كخط دفاع مجهز ، للدفاع من مدخل ميناء ممباسة ، ولتأمين مركزهم على الساحل الشرقى لإفريقية ، وكان ظهور السفن التركية بقيادة على بك فى المحيط الهندى ، وثورات ممباسة ضد البرتغاليين سببا فى رفضهم لأن يبقى أفضل موانى الساحل قاعدة لأعدائهم .

وكان محمد يوسف حسن الذى عينه البرتغاليون سلطانا على ممباسة بعد اعتناقه المسيحية وذهابه إلى جوا للدراسة — قد انقلب على سادته فى ١٦ أغسطس ١٦٣١ ، عندما دخل القلعة مع مجموعة من أنصاره

وقتل قائدها بيترو ابتاء دى جاميوا . وأصدر أوامره من القلعة لأتباعه بإحراق منازل البرتغاليين فى المدينة .

وكان محمد يوسف حسن قد سمى نفسه بعد اعتناقه المسيحية دوم جيرو ميمو شينجوليا ، ولما كان يعلم أن البرتغاليون سوف يرسلون تعزيزات إلى ممباسة ، فإنه هرب بعد عام وامتهن القرصنة . وقام الجنود البرتغاليون بقيادة الكابتن بيترو رود ريجز بوتاو بإعادة احتلال القلعة وتجديدها .

وخلال ثلاث سنوات من ١٣ مارس ١٦٩٦ حتى ١٣ ديسمبر ١٦٩٨ أصبحت القلعة هدفاً لهجوم العمانيين العرب . ونتيجة لذلك دمرت بعض أجزائها .

وفى عام ١٧٤٤ حلت أسرة البوسعيد محل اليعاربة فى عمان ، وعندما علم حاكم ممباسة محمد بن عثمان المزروعى بالتغييرات السياسية فى عمان ، أعلن استقلال ممباسة . وبعدها بخمس سنوات قتل داخل القلعة بيد أشخاص قيل أنهم أرسلوا من عمان . واستطاع أخوه الهرب ، ثم العودة بمساعدة ضابط إنجليزى ، وأعلن نفسه حاكما .

وعقب هذا النجاح ، حكم المزروعى ممباسة لفترة خلت نسبيا من المتاعب ، حتى بدأ السيد سعيد بن سلطان الكبير يحول اهتمامه إلى ممتلكاته فى إفريقية .

لكن المزاريع — الذين تمسكوا بالاحتفاظ باستقلالهم وضعوا أنفسهم تحت الحماية البريطانية . ووقعت اتفاقية الحماية داخل القلعة فى ٩ فبراير ١٨٢٤ . وفى ٢٥ يولية ١٨٢٦ سحبت بريطانيا ممثلها ، وفى يوم ٧ يناير ١٨٢٨ احتل السيد سعيد القلعة . وعين ناصر بن سليمان حاكما وممثلا له . لكنه اضطر فى نهاية العام أن يستسلم للمزروعى الذى حاصر القلعة ومنع عنها الطعام ، وبعد ذلك تمكن من قتله ، لكن السلطان استعاد القلعة

بدون قتال فى فبراير ١٨٣٧ ، واستخدامها كثكنات لجنوده حتى عام ١٨٩٥ . وعين السلطان ، محمد بن عبد الله بكشوينى قائداً لقواته . وفى يناير ١٨٧٠ تمرد بكشوينى (وهو أصلا من حضرموت) ، وفى ١٨ يناير قامت سفينتان بريطانيتان بقصف القلعة بالصواريخ والقذائف وألحقت بها أضرارا جسيمة .

وفى أول يوليو ١٨١٥ — وبعد أن أصبحت كينيا محمية بريطانية — تحولت القلعة إلى سجن لمنطقة الساحل ، وأعيد تخطيطها لتتلاءم مع مهمتها الجديدة . وفى ٢٤ أكتوبر ١٩٥٨ حولت قلعة يسوع إلى حديقة عامة ، وفى ٢٩ نوفمبر ١٩٦٠ حولت القلعة إلى متحف .

ومن الجدير بالذكر أن الرجل الذى عين فيما بعد قائداً لقلعة يسوع ، كان قد ولد بها ، وهو محمد بن عبد الله بن مبارك بكشوينى ، وكان والده عبد الله بكشوينى قد هاجر إليها من حضرموت وعين قائداً للقلعة فى عهد السيد سعيد . وبعد تعيينه أخلص فى خدمة مصالح السلطان فى الفترة الأولى ، ولكنه عاد فتمرد على السلطان ، مما أدى إلى عزله وأسره وإرساله إلى زنجبار مع عائلته . ثم أبعد إلى المكلا . ومن هناك ذهب إلى مدغشقر حيث تزوج من السلطانة بيسيقا بيبرا - فوم ، التى انجبت له سبعة أبناء . وفى عام ١٨٨٨ عاد إلى زنجبار حيث بقى هناك حتى وفاته عام ١٨٩٤ .

وهناك جزيرتان أخريان انضمتا إلى ممباسة ضد سيادة سلاطين عمان ، وهما لامو وباتى . وسوف نناقش أمر هاتين الجزيرتين على حدة .

لامو وباتى

تقع جزيرتا لامو وباتى على الناحية الشرقية من ساحل كينيا ، ولطالما تقاتلت لامو ، وهى الأكبر حجما ، مع باتى ، وهى الأقوى ، وقد نشبت معارك عديدة بين الجزيرتين ، وكان حاكم باتى يدعى «بوانا تامو» وقد قرر أن يشن هجوما على لامو للحصول على الأسلحة التى خلفها البرتغاليون ، وكانت مدفونة فى لامو ، إلا أنه فشل فى تحقيق هدفه ، لأن قواربه قد غرقت قبل وصولها إلى شواطئ لامو .

وقد استولى حاكم باتى على لامو فى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر ، ولكنه لم يلق إلا سخط شعب لامو ، وقد قرر أحد سلاطين باتى ، ويدعى «بوانا فومومادى بناء قلعة على البحر فى لامو لحماية البلاد ، ولكنه مات قبل أن يكتمل الطابق الأول منها ، ونشأت بعد وفاته مشكلة اختيار خليفته من بين أولاده الخمسين .

واستغل حاكم ممباسة المزروعى الفرصة فجاء إلى لامو ليعمل على اختيار أحد أزواج بنات السلطان الميت لكى يتولى الحكم ، فانزعج شعب لامو من هذا التدخل ، وخافوا من التعاون مع شعب باتى ، لمقاومة هذا التدخل ، ورضوا ، وهم كارهون ، بتسليم الجزيرتهم إلى المزروعى ، مستهدفين إثارة شعب باتى ليثور ضد أصدقائه المزاريع ، فتنشب الحرب بين باتى وممباسة ، ونجح شعب لامو فى ذلك ، غير أن الشعب فى باتى عقد اتفاقا مع المزروعى ، يقضى بأن يتظاهر المزروعى بأنه على خلاف مع باتى فيحاولون التقرب من شعب لامو ، وبهذه الطريقة يمكنهم أن يضعوا

أيديهم على قلعتها ، ويحضرون قواتهم إليها ، ويدفعون أصدقاءهم فى باتى إلى مهاجمة لامو .

وكانت فرصة ذهبية لرئيس قبائل المزاريع عندما دعاه سكان لامو لمساعدتهم ، وفى عام ١٨١٣ توجه إلى لامو ، واستطاع إقناع أهلها بضرورة استكمال بناء القلعة التى كان السلطان فومو مادى قد بدأ فى بنائها ، استعدادا للهجوم على باتى .

غير أن واحداً من شخصيات لامو ، من كبار السن ، لاحظ أن شيئا ما يجرى بين رئيس المزاريع وبين ملك باتى ، فوضع هذا الرجل خطة معينة يستكشف بها حقيقة ما يحدث ، وبعث بأحد الصيادين ، يحمل رسالة إلى رئيس المزاريع ، زعم أنها من ملك باتى ، يسأله فيها عن رأيه فيما يتعلق بالخطة التى اتفقوا عليها .

ووقع رئيس المزاريع فى الفخ ، وكتب الرد على الرسالة ، وسلمه إلى الصياد ، الذى عاد به فى وقت متأخر من الليل .

وقد تضمن الرد معلومات عن القلعة ، وأنه سوف يحدد موعد الهجوم بمجرد أن تستكمل القلعة بناءها .

وفى صباح اليوم التالى ذهب الرجل ، وهو من كبار رجال لامو ، إلى موقع البناء ، وقدم تحيته إلى رئيس المزاريع ، ثم بعد هنيهة أطلعه — فى أدب — على الخطاب ، فهاج المزروعى ، لأن الخطاب أظهر له غباءه ، وهرع إلى الشاطئ نحو قاربه ، وفى أعقابه رجال لامو ، يريدون قتله .

ولكن الرجل أقنعهم بضرورة المحافظة عليه وعدم إصابته بسوء طالما أنه ضيف عليهم ، وعاد المزروعى إلى باتى ، وأبلغ ملكها بما حدث .

فجرى بسرعة إعداد مجموعات حرب من جنود المزاريع ومن جميع قوات باتى .

وصمم شعب لامو على مواجهة الأعداء ، ووقعت بين الفريقين معركة فى شمال شرق لامو ، وكان القتال بالغ العنف ، وانتصر شعب لامو وتغلب على أعدائه ، وأما الذين هربوا فقد عادوا إلى باتى .

وقد كانت هزيمة المزاريع شؤما عليهم فى أنحاء الساحل الشمالى ، فنى خلال السنوات القليلة اللاحقة خسروا سيطرتهم على ممباسة ، وقد كانت لهم معقلا .

وبعد هزيمة المزاريع فى شيلا جذبت لامو انتباه سلطان مسقط ، الذى طالما ساءه تمرد المزاريع فى ممباسة .

فقام بإرسال قوة من جيشه وإرسال حاكم من قبله ليتولى حراسة قلعة لامو ، وقد أتاح ذلك القرار الفرصة لتدفق التجار العرب الذين شعروا بأن الاستقرار السياسى سوف يعزز من فرص الرخاء .

وقد جلب أولئك التجار معهم رءوس أموالهم وخبراتهم التجارية فجعلوا من مدينة لامو لعبة للتجارة الدولية ، وبدأت السفن العمانية الكبيرة والفارسية تتدفق على الميناء فى فصل الرياح الموسمية الشمالية الشرقية لتقوم بنقل السلع بأنواعها الأخرى ، وخلال الربع الثانى من القرن التاسع عشر ، أصبحت لامو أهم مدن ساحل شرقى إفريقية بعد ممباسة .

وفى أعقاب انتهاء القرن التاسع عشر ، عندما أدى التسابق الأوربى على إفريقية ، إلى تقسيم ممتلكات سلطان زنجبار ، وإنشاء محمية بريطانية فى شرقى إفريقية ، فقد ظهر عدد من المغامرين البريطانيين فى المنطقة .

وكانت نتيجة ذلك تدهور لامو ، وأصبح رخاؤها جزءاً من الماضى .

٢ — باتى :

باتى جزيرة أخرى فى أرخبيل لامو استوطنها العرب العمانيون ، ويعتقد أن باتى قد أنشأها المهاجرون من عمان فى القرن الثامن عشر ، ثم قامت عائلة النبهانى بتطويرها وقد جاءت من عمان عام ١٢٠٤ ، وقيل أن باتى كانت من الأقطار القوية فى القرن الرابع عشر ، وسيطرت على معظم المدن الساحلية فى شرق إفريقية ، غير أن آخر الكشوف الأثرية ، تشككك فى صحة ما سبق أن ورد ذكره عن هذه الجزيرة ، وتشير تلك الكشوف إلى أن مدينة باتى قد تأسست فى القرن الرابع عشر لكنها لم تتطور إلى دولة قوية تنعم بالثراء إلا فى القرن السادس عشر .

وفى القرن الثامن عشر غدت باتى دولة قوية ومتقدمة جدا فى مجال الفنون الجميلة ، وسمى هذا العصر بالعصر الذهبى لباتى .

ففى ذلك الوقت بالذات كان يمكن رؤية المنازل الأنيقة البناء ، وأصناف المجوهرات والآلات الموسيقية المصنوعة محليا والتى كانت تسمى « سيوا » والمطعمة بالفضة ، ونسخ القرآن المخطوطة باليد ، ودواوين الشعر المؤثرة ، ومعظمها من نظم شاعرات ، وقد تدهورت حضارة باتى فى أواخر القرن الثامن عشر نتيجة للنزاع المستمر مع الجزر المجاورة لها .

٣ — سيو :

سيو مدينة تقع وسط جزيرة باتى ، ولا يعرف بالتحديد تاريخ إنشائها لعدم القيام بعمليات مسح أثرى شاملة بها ، ومع ذلك يعتقد أن تاريخ نشأتها يرجع إلى القرن الثالث عشر ، وكانت تعتبر أكبر مدن الجزيرة حوالى عام ١٦٠٠ .

وقد وقعت معركة عنيفة فى سيو فى القرن التاسع عشر ، والمعلومة الوحيدة عن تلك المعركة ما ورد فى مخطوط بعنوان « المغامرات الحربية

للأمير حمد ، وهو ما لم ينشر . وقد ذكر كريسي مالك كاستر وايزموند مارتا نز فى كتابهما « البحث فى الماضى » ، « أنه فى عام ١٨٤٣ قرر شيخ باتى الجديد ، وبوانا ماتاكا ، وشيخ سيو ، الخروج عن سيادة السيد سعيد سلطان عمان وزنجبار . فأرسل السيد سعيد جيشاً من ألفى رجل من العرب ومن البلوش ، وبعض المقاتلين من لامو ، وأسندت قيادته إلى القائد المشهور السيد حمد بن أحمد البوسعيدى ، المعروف بالأمير حمد ، الذى كان من قبل والياً على بندر عباس (فى فارس) عام ١٨٢٤ ، وقد حقق ذلك القائد انتصارات فى معاركه ضد باتى وبيمبا وممباسة . ولكن النصر لم يحالفه فى تلك المعركة . فقد نزل فى فازا فى أوائل يناير ١٨٤٤ ، وبينما كان يتحرك فى اتجاه سيو فى السادس من يناير ، وقع رجاله فى كمين وأرغموا على التقهقر إلى فازا . وبعد ثلاثة أسابيع من الأعمال غير الحاسمة أبحر بعيداً عن سيو وأمر بإقامة قلعة فى سيو يحرسها مائة من الجنود البلوش العمانيين .

وفى ديسمبر ١٨٤٤ تم حشد تسعمائة رجل فى مسقط لمقاتلة سيو ، وأحضروا إلى زنجبار حيث تم تعزيزهم بمزيد من المقاتلين . ووصلوا مرة أخرى إلى فازا فى ٤ يناير ١٨٤٥ . وعسكر السيد سعيد وقائد جيشه الأمير حمد خارج فازا فى مكان يسمى كيشوكا نى . وفى ٦ يناير تقدم الأمير حمد نحو سيو ، بينما صدر إليه أمر من السيد سعيد ببناء خمسة حصون دفاعية فى الطريق إلى سيو ، وبدلا من أن يقوم ببنائها فإنه أنشأ حصنا واحداً فى منتصف الطريق إلى سيو فى مكوبانى . ثم هاجم سيو وأرغم سكانها على التقهقر وراء أسوار المدينة . لكن سكان سيو تمكنوا من منع قوات السلطان من التقدم ، بقصفها من مدافعهم من خلال فجوات فى السور .

وبدلا من أن يواصل الأمير حمد القتال ، فإنه قرر العودة بقليل من جنوده إلى مكوبانى لإحضار تعزيزات جديدة . وكان ذلك خطأ فادحاً منه . فقد استطاع خمسمائة مقاتل التسلل من سيو ، بعد أن سلكوا طريقا أقصر إلى مكوبانى .

وهناك اعترض أولئك المقاتلون الأمير حمد الذى لم يكن معه سوى ما يتراوح بين ١٨ و ٢٢ رجلا معظمهم عزل من البنادق ولا يحملون إلا السيوف والخناجر . وحتى يمنع قائد قوات سيو حمادى نجوما وصول إمدادات للقائد العمانى ، فإنه أمر رجاله بعدم استخدام الأسلحة النارية حتى لا تحدث صوتا ، وأنما يقتلون الأمير حمد بالرماح السامة .

وبعد إطلاق ١٨ رمحا نحوه ، استطاع أحد الرماة أن يطلق عليه رمحين متتابعين أصابه الثانى فى ركبته . ثم اندفع رجلان بسيفيهما لقتل الأمير المصاب . لكن الأمير حمد استطاع تمزيقهما . وأخير تلقى الأمير عدداً آخر من الرماح السامة .

« وعندما وجد السيد سعيد أن قائد قواته قد قتل ، أنهى حصاره لسيو وانسحبت القوات وهى فى حالة اضطراب بحيث تمكن جنود العدو من ذبح الكثيرين منهم ، بينما ألقى آخرون بأنفسهم فى المستنقعات القاتلة . وتم دفن جثمان الأمير حمد قرب فازا وقد توفى عدد كبير من جنوده أثناء بكائهم على قائدهم الكبير . وقد قام السيد سعيد وهو فى حالة صدمة بلم شتات بقايا جيشه وأبحر عائدا إلى زنجبار . ولم ينبس ببنت شفة إلى أن وصل إلى ماندا .

وبعد ذلك بوقت قصير سمع السيد سعيد أن شيخ ماتاكا قد توفى ، ومن ثم قرر التفاوض بدلا من القيام بمحاولة أخرى لأخذ سيو بالقوة . فقد اعتقد السيد سعيد ؛ انه مادام شيخ ماتاكا — الذى كان خصمه الرئيسى — قد مات ، فإن قيامه بشن هجوم ، سوف ينسف مكانته ، لأنه لو كسب المعركة فلن يشيد به أحد ، أما إذا خسرها فسوف يكون ذلك مشينا له . وقبل وفاة السيد سعيد شدد فى نصح إبنه السيد ماجد بأن يتدبر كثيرا ما حصل فى سيو .

وقد تفاوض السيد سعيد مع شيخ سيو الجديد وعسكرت قواته من

جديد فى القلعة . وفى عام ١٨٦٣ أخرج الشيخ محمد ابن ماتاكا قوات السلطان من قلعة سيو ، وتحالف مع أحمد سيمبا سلطان باتى . ورد السيد ماجد سلطان زنجبار على ذلك بارسال أسطول مسلح لمهاجمة سيو . وقامت قوات السيد ماجد بإنزال قوات فى باتى وفازا ، وفرضت حصارا على سيو استمر ستة شهور . وخلال هذه الفترة كان سكان باتى قد أكلوا كل ما لديهم من طعام . وبدأوا يعيشون على عصير جوز الهند والماء . وعندما وجد الشيخ محمد أنه لايوجد أمل فى النصر وأنه مهدد هو ورجاله بالفناء جوعا طلب هدنة .

وقد وافق السيد ماجد على ذلك بشرط إعادة بناء قلعة سيو لتصبح مقرا الوالى . وقد قبل الشيخ محمد الشرط وأعيد بناء القلعة .

وقد وقع خلاف جديد بين السيد ماجد وبين الشيخ محمد عندما قام الأخير بإنشاء حظيرة لبناء سفينة شراعية من طراز الداو فى منطقة مواجهة لمقر الوالى واستاء الوالى جدا من ذلك التصرف ، فما كان من الشيخ محمد إلا انه امر أتباعه بهدم القلعة . ورغم ما حدث فإن غالبية السكان طلبوا من الشيخ محمد تقديم اعتذار للسيد ماجد . ونزولا على طلبهم بعث الشيخ محمد بالاعتذار وأعيد بناء القلعة ، غير أن السيد ماجد سرعان ما انتقم من الشيخ المذكور ، فعندما توجه الشيخ محمد مع زعماء سيو إلى زنجبار لتقديم فروض الولاء للسلطان ، أمر السيد ماجد باعتقاله والزج به فى قلعة يسوع فى ممباسة مع أوامر بوضع القيود فى يديه وبألا يفرج عنه إلا بأمر منه . ولكن ذلك الأمر لم يصدر وأمضى الشيخ محمد بقية حياته فى قلعة يسوع ، وفرض السيد ماجد سلطان زنجبار سلطته الكاملة على سيو فى النهاية .

وفى عام ١٨٢٣ وبعد عشر سنوات من السلام أصبحت سيو أكثر مدن الجزيرة سكانا وثروة ، ونصب حاكم عربى فى القلعة ، وقد نجح فى إحلال السلام بين مختلف الطوائف فى الجزيرة .

وكان فى المدينة ستة من التجار الهنود . واحد منهم من البهرة والخمسة الآخرون من الهندوس ، وكانوا يمارسون النشاط التجارى ، وكان مزارعو سيو يمارسون نمطا غير معتاد فى الزراعة، لكنه أسلوب معروف فى مسقط . ويقوم على حفر الآبار حول مشارف المدينة لرى المزارع ، وجاب الجمال لاستخدامها كحيوانات عمل فى استخراج المياه بدل الثيران التى لاتقوى على هذا العمل بكفاية .

وكان التبغ (تابو) أكثر المحاصيل الزراعية قيمة ويصدر إلى معظم المدن الساحلية ، وكذلك جوز الهند والبلح ؛ وأنواع أخرى من الفواكه الاستوائية .

والتبغ فى فترة السبعينيات – القرن التاسع عشر من أكثر المحصولات الزراعية إنتاجا فى المناطق الساحلية ، وعندما تتعذر زراعته أثناء فترة الرياح الموسمية الشمالية الشرقية فإن سكان سيو يصدرون محصولهم إليها .

وكان البلح أهم محاصيل سيو ، وتعتبر زراعته مقصورة على سيو دون غيرها من مناطق الساحل لعدم توافر موارد كافية من مياه الرى ، والبلح هو أهم محاصيل سيو .

وقد ساعد نظام الرى المتبع فى سيو على احتفاظ جذور النخيل بالرطوبة الدائمة ، وكانت هناك مئات من أشجار النخيل تنتج نوعاً عالى الجودة من البلح

ولما ألغى الرق انهار الاقتصاد الزراعى ، فانهار بذلك رخاء سيو ، مما اضطر الناس إلى مغادرة المدينة للبحث عن عمل فى ممباسة .

وكل ما بقى الآن من هذه المدينة فى جزيرة باتى هو القلعة القديمة التى أنشأها السيد سعيد بن سلطان ، ولا يبقى من مئات أشجار النخيل سوى واحدة أو اثنتين .

حملة مكافحة الرق

تعتبر مناقشة تجارة الرقيق من المسائل بالغة الحساسية ، وإنه من الصعب إقناع أبناء الذين تأثروا فيها بشكل مباشر بتقبل واقع تلك الفترة التى ازدهرت فيها تجارة الرقيق فالذين نشطت حملات مكافحة الرق من أجلهم لم يتمكنوا من تفهم أن الذين قاموا بهذه الحملات لم يكن هدفهم إنسانياً بحتاً ، بل أن الدوافع السياسية هى التى كانت تحركهم .

ولقد نجحت هذه الدوافع فحققت للأوربيين أهدافهم السياسية فى شرق إفريقية ، وزرعت الكراهية العنصرية والدينية فى عقول الناس إلى الحد الذى يجعل شخصاً يكره شخصا آخر لمجرد أن جلده يحمل هذا اللون أو ذلك ، أو أنه يعتنق هذا الدين أو ذاك .

وفى الحقيقة ، فإن تجارة الرق كانت عملا بشعاً ، شارك فيها غالبية الذين زاروا إفريقية — إن لم يكونوا كلهم — وتورط فيها كثير من الناس بما فى ذلك الإفريقيون أنفسهم ، بدءا من إمبراطورية الزنج ونهاية بوصول العرب ، وحتى بوصول الدول الأوربية إلى شرق إفريقية ، ولقد كان هناك دافع مشترك فى تلك الأيام وهو الحصول على قوة عاملة رخيصة . ومع ذلك فقد كانت تلك التجارة سبة فى جبين الحضارة نفسها ، أكثر مما كانت شيئا مشيناً للذين زاولوها منتهكين المبادئ الإنسانية .

ورغم أن البرتغاليين والفرنسيين والأسبان قد شاركوا فى تجارة الرقيق ، فإن العرب هم الذين انصبت عليهم الانتقادات . وقد ظهر العرب على مسرح هذه التجارة فى القرن التاسع عشر .

وعندما اتخذت بريطانيا خطواتها المبدئية ضد تجارة الرقيق فى شرق

إفريقية، فإن ذلك حدث فى عهد السيد سعيد بن سلطان . ففى عام ١٨٢٢ وقع السيد سعيد إتفاقية مع بريطانيا تعهد فيها بتحريم بيع الرقيق إلى أى دولة مسيحية .

كما نصت الاتفاقية على وجوب إطلاق سراح جميع العبيد الذين يملكهم الرعايا البريطانيون المقيمون فى المناطق الخاضعة للسيد سعيد سلطان زنجبار ، وقد حاول الرعايا البريطانيون والهنود أصحاب الرقيق أن يلتمسوا من السلطان إعفاءهم من هذا الشرط لكنهم لم يفلحوا فى مسعاهم . وقد نتج عن إلغاء هذا الوضع السائد انهيار الاقتصاد الزراعى . وحدث ما كان متوقعاً . حيث تحول العبيد الذين تحرروا إلى السرقة لملء بطونهم عندما عجزوا عن العثور على ما يسد رمقهم، وقد كان المفهوم فى ذلك الوقت أن قانون تحريم الرقيق إنما يقتصر على رعايا بريطانيا المقيمين فى ممتلكات السيد سعيد وحدهم ، وعندما رفض رعايا السيد سعيد تطبيق هذه الإجراءات على أنفسهم ، فقد كان على بريطانيا أن تتدخل لتفرض أوامرها على رعاياه .

وان الوضع بالنسبة للرقيق فى البلاد الإسلامية كان مختلفا عنه فى أمريكا الشمالية ، ففى الدول الإسلامية كان للعبيد ساعات عمل محدودة ، وكان يسمح لهم بالعمل لحسابهم الخاص ، يومين على الأقل كل أسبوع ، بالإضافة الى منحهم فترات راحة .

وكان هنالك تنافس بين المسلمين فى منح الحرية لعبيدهم ، وكان مما يفخر به العبد أن يعلن أنه مملوك لشخص مميز .

ولكى نفهم بشاعة الرق ، ينبغى معرفة الفرق بين تجارة العبيد وبين امتلاكهم، فالأولى تتنافى تماما مع الأحاسيس الإنسانية . ولقد كان من عادة تجار الرقيق أن يتجولوا فى غابات إفريقية لاصطياد العبيد ، وكانو يقومون — بمساعدة بعض الإفريقيين — بنزع الضحايا من أكواخهم وإرسالهم إلى الساحل تحت أقصى الظروف . وكثيرون منهم كانوا يموتون قبل وصولهم إلى الجهة المتجهين إليها ، بسبب الجوع والعطش والتعذيب .

وقد يتساءل المرء ! ألم يكن تجار العبيد أنفسهم يقاسون من نفس المشكلات ، وهم يقودون قوافل العبيد من الداخل إلى الشواطئ ؟ . أننا إذا

أخذنا فى اعتبارنا المطمح الرئيسى لتاجر الرق فى تحقيق أكبر مكسب من بضاعته ، فإننا نجد من المنطقى أن يكون مهتما بالوصول بعبيده إلى السوق أحياء وفى صحة جيدة ، حتى يحصل مقابلهم على أفضل سعر . فلقد كان الرقيق رأس مال التاجر ، وإذا عذبه حتى الموت فإنه يخسر رأس ماله .

وعندما بدأت حملة مكافحة الرقيق فإنها لم تبدأ كمسألة إنسانية ، ولكنها بدأت بدوافع سياسية . ولقد حرص الكتاب الذين كتبوا عن تجارة العبيد وقمعها ؛ على أن يغرسوا بذور الكراهية فى عقول قرائهم ، وبذلك أفرزت تلك البذور حصادها المقيت ، وظلت تلك الكراهية سائدة منذ أن كانت تجارة الرق فى أوج ازدهارها حتى يومنا هذا ، حيث أصبحت مجرد قصة من قصص الماضى .

وفى مجال المقارنة ، فان التجار الأوربيين كانوا أكثر تجرداً من الإنسانية ، من نظرائهم العرب . فلم يكن العرب يبيعون عبيدهم فى الأسواق مع أثاثهم عندما كانوا يغادرون مدينة ما إلى أخرى مثلما كان يفعل الأوربيون .

وقد كتب الرحالة الأوربى ريتشارد فى عام ١٨٨٠ بعد زيارته لزنجبار يقول ، بأن العبيد هنا لايعانون من الجوع أو التعذيب أو الحرمان ، لأنه لو بلغت السلطان أنباء عن سوء معاملة السادة لعبيدهم فإنه يعطى لهؤلاء العبيد حريتهم ويحميهم من انتقام سادتهم السابقين ؛ ومضى ريتشارد يشرح أوضاع العبيد كما شاهدها ، مؤكداً بأنها أفضل حالا من ألوف العمال فى بلاده .

ويرجع إلى السيد سعيد فضل كبير فى مساعدة بريطانيا مساعدة كبيرة فى محاولاتها تحريم تجارة الرقيق ، رغم أن المعاهدات التى وقعها معها لم تكن موضع ترحيب من شعبه ، وفضلا عن ذلك فإنه كان يشكل خسارة

اقتصادية ومالية طائلة كانت تعود عليه من الرسوم المقررة فى ممتلكاته على العبيد الزارعين ، وقد كانت هذه الرسوم مصدراً رئيسياً للدخل .

وبعد وفاة السيد سعيد استقبل إبنه السيد برغش كثيراً من المبعوثين البريطانيين الذين جاءوا كدعاة تشديد للحملة ضد الرق ، ومن بين هؤلاء السير بارتل فرير الذى نجح بعد عدة محاولات فى شراء عدد من العبيد ، ومنحهم الحرية ، وبعد ذلك حصل على قطعة أرض فى ممباسة ، وأقام عليها مستعمرة يعمل فيها العبيد الذى حرروا من ساداتهم ، وسمى هذا المكان باسم (فريرتاون) أى مدينة فرير ، وما زال يحمل نفس الإسم حتى اليوم

وكان الدكتور كيرك يمثل فرير ، ثم أصبح بعد ذلك يحمل لقب سير ، وهو السير جود كيرك القنصل البريطانى فى زنجبار ، وقد وصل به الأمر إلى أنه هدد السيد برغش باستخدام القوة إذا لم يوافق على توقيع معاهدة أشد صرامة ، وقد وقع السيد برغش على تلك المعاهدة عام ١٨٧٣ . وأغلق السلطان سوق العبيد فى زنجبار .

وفى سبتمبر ١٨٧٩ وقع السيد خليفة — الذى خلف السيد برغش — اتفاقاً مع بريطانيا ، يقضى بأن كل الذين يدخلون أراضى السلطان إبتداء من أول نوفمبر من ذلك العام يعتبرون أحراراً ، كما أن الأطفال الذين يولدون بعد أول يناير ١٨٩٠ ، يعتبرون أحراراً أيضاً .

واتخذت الخطوة النهائية نحو إلغاء الرق فى زنجبار وبيمبا عام ١٨٩٧ ومن الجدير بالذكر أنه لم يكن هناك اندفاع من جانب العبيد لنيل حريتهم ، ففى أواخر يونيو من ذلك العام ، أعلن عن حصول ١٢٠ شخصاً فقط على حريتهم فى زنجبار وبيمبا . فقد كان كثير من العبيد سعداء وراضون عن أوضاعهم لدى سادتهم ، وهنا يتضح الفرق بين الإتجار فى الرقيق وبين امتلاك الرقيق ، فلقد كان الجانب البشع فى الرق مرتبط بعملية نقل العبيد

من الداخل إلى الشاطئ ، وعبر الرحلة إلى زنجبار ، لكن حسن معاملة الرقيق لم تكن تبدأ إلا بعد وصولهم إلى الجهة النهائية . وكثيرون من العرب كانوا يتصفون بالرحمة ؛ ولذلك عادة ما كان العبد فى زنجبار أكثر أماناً وراحة مما كان فى قريته بالداخل . وكان أصحاب الرقيق يهبونهم بعض الأراضى لاستصلاحها وزراعتها لأنفسهم ، أما الذين عملوا كخدم فى البيوت فقد كانوا مرتبطين بسادتهم ، وكانوا يرفضون منحهم حريتهم . وتدريجياً بدأ العبيد يطالبون بحريتهم ، إلى أن اختفى الرق تماماً .

الاسلام والمسيحية فى شرق أفريقية

رأينا فى الفصل السابق كيف أقام العرب والفرس مستوطنات فى شرق إفريقية ، من مقدشيو شمالا إلى كيلوا فى الجنوب . ومن الجدير بالذكر أن أولئك المهاجرين لم يذهبوا إلى شرق إفريقية كمبشرين بالإسلام هدفهم هو تحويل الإفريقيين إلى الدين الإسلامى . فقد كان الدافع هو العثور على ملجأ آمن — من ناحية — والتجارة من ناحية أخرى. وكان اعتناق السكان الوطنيين للدين الإسلامى نتيجة للعلاقة الوثيقة التى نشأت بينهم وبين ضيوفهم . كذلك انتشر الإسلام فى إفريقية بحكم الزواج والامتزاج بين الطرفين ، والذى بدأ منذ قرون واستمر فى القرن الثامن عشر مع الاستيطان الدائم للمسلمين القادمين من الجزيرة العربية وشيراز .

ويمكن القول أن دخول الإسلام قد مهدت له تلك الروابط الأخوية بين الشيرازيين والعرب من ناحية ، وبين سكان شرق إفريقية من ناحية أخرى . وهى روابط إجتماعية وثقافية قامت منذ وقت طويل

ومن جانب آخر فإن المسيحية دخلت شرق إفريقية من خلال فتح هذه المناطق على يد الأوربيين ، ويرتبط نشاط البعثات التبشيرية المسيحية بمختلف صورها بالقصة الكاملة لفتح إفريقية الاستوائية وتطورها خلال القرن التاسع عشر ، كما أن جزءاً كبيراً من الكشوف الأولى للمناطق الداخلية من إفريقية قد تم خلال القرن التاسع عشر على يد مبشرين مسيحيين . وإلى جهودهم يعود الفضل فى وقف تجارة الرقيق البشعة .

وبدون الحديث عن أعمال المسيحيين يصبح الحديث عن تاريخ ساحل شرق افريقية غير كامل . وقد سهل سلطان زنجبار — رغم أنه مسلم —

عمل تلك البعثات المسيحية ، وهذه هى الديمقراطية الكاملة فى الإسلام ، فالإسلام لا يتدخل فى شئون أية ديانة أخرى ، بل العكس على فهو يحترم الديانات الأخرى ، والقرآن يقول : لا إكراه فى الدين . ومن هذا المنطلق عرض السلطان كافة المساعدات والتسهيلات للبعثات المسيحية عندما اتصلت به ، وبصرف النظر عما إذا كان مصيبا فى ذلك أم لا ، فإنه قد تصرف بحسن نية وبالتزام كامل بمبادئ الإسلام .

وبعثات التبشير الرئيسية التى عرفت بنشاطها الزائد فى شرق إفريقيا هى :

(١) جمعيه التبشير الكنسية : وهى جمعية توفد رجالا إلى هذه المناطق ، وتأسست عام ١٧٩٩ للعمل فى « إفريقية والشرق » . وفى عام ١٨٤٠ أرسل الدكتور كرامبف إلى الحبشة فى بعثة تقصى الحقائق ولمعرفة ما إذا من الممكن التبشير بالمسيحية فى هذه البلاد ، وقد أقنعته مشاهداته بعدم نجاح التبشير هناك فى ذلك الحين .

وفى عام ١٨٤٤ غادر الحبشة وذهب إلى زنجبار حيث أكرم القنصل البريطانى همرتون وفادته ، وقدمه للسيد سعيد ، وقد شرح الدكتور كرامبف للسلطان ، أنه يرغب فى الاستيطان فى ممباسة من أجل تحويل السكان إلى المسيحية ، فسمح له السيد سعيد بالقيام بذلك ، وسلمه رسالة توصية للحاكم العربى للساحل .

وأبحر الدكتور كرامبف إلى ممباسة فى مايو سنة ١٨٤٤ ، وبدأ عمله بين قبائل نييكا ، ولم تكن البيئة المحلية مهيأة له ولعائلته تماما ، فخلال بضعة شهور من إقامته هناك فقد زوجته وطفله ، بينما أصيب هو بمرض خطير ، ولما ماتت زوجته حضر حاكم ممباسة وغيره من المسلمين السواحليين جنازتها إكراما له .

ولم تثبط تلك الأحداث من همته ، واستمر في عمله . ولحق به عام ١٨٤٦ صديقه القس جون ريبمان ، وأقاما مقرا للبعثة في قرية رابای ؛ وما زالت كنيسة رابای تستخدم حتى اليوم .

٢ — البعثة الجامعية لوسط إفريقية : وقد تأسست هذه البعثة عام١٨٥٦ نتيجة لنداء وجهه دكتور ليفنجستون إلى جامعتى أوكسفورد وكامبريدج ، وفى البداية أوصت البعثة بالبدء فى عمل نشط عام ١٨٦١ فى إقليم نهر شيرى ، بقيادة الأسقف ماكنزى ، ولم يكن اختيار المكان مناسبا بسبب الطبيعة القاسية هناك ، حيث مات الأسقف ماكنزى ومعظم مساعديه فى العام الأول من بدء نشاطهم ، وقرر خلفه الأسقف توزر الذى وصل إلى نهر شيرى عام ١٨٦٣ ، وقف العمل هناك لفترة ، ونقل المقر إلى زنجبار بعد أن تأكد من أن مركز زنجبار المتوسط على الساحل الشرقى يمكن أن يجعل منها نقطة للانطلاق لمزيد من العمل فى الداخل .

ووصل الأسقف توزر بصحبة الدكتور ستير إلى زنجبار فى أغسطس ١٨٦٤ ، وبضعة أيام قضياها ضيفين على القنصل البريطانى ، اتفق مع السلطان السيد ماجد على تزويد البعثة بمبنى كبير مواجه للبحر فى شانجانى فى وسط المدينة .

وزود السلطان الأسقف توزر بخمسة من الصبية الذين كانوا عبيدا وحرروا ، ليساعدوه فى عمله ، وبهؤلاء الصبية وغيرهم ممن انضموا إليه بعد ذلك بدأ توزر عمله بتعليمهم بحيث أصبحوا فيما بعد مدرسين وقسسا .

وفى عام ١٨٦٥ اشترى الأسقف توزر مقاطعة فى كيونجانى ، على مسافة لا تبعد كثيراً عن مدينة زنجبار ، وبعد ذلك بعدة سنوات اشترى قطعة أخرى من الأرض فى مبوينى ، على مسافة أربعة أميال إلى الجنوب من المدينة واستخدمها لإقامة الوافدين الجدد إلى البعثة ، ولم يمض وقت

طويل حتى أنشئت قرية فى هذا الموقع للعبيد الذين تم تحريرهم ، ومن هذا المكان انتشرت المسيحية إلى الداخل حتى وسط إفريقية .

٣ — بعثة الروح : وتتبع الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، وقد أسسها دكتور أماند مانيوينت ، وأسقف سانت دينيس ، الذى أرسل نائبه العام إلى زنجبار عام ١٨٦٠ ، وعند وصوله إلى زنجبار زار هو ومرافقوه السلطان السيد ماجد وأبلغوه أنهم سيقومون بأعمال التمريض للمواطنين الفقراء وتعليمهم وقد لقوا من السيد ماجد ترحيبا وديا ، وأعرب لهم عن أمله فى أن يكون فى عملهم بركة لشعبه .

وقد أنشأت البعثات مستشفيين ، واحدة للبحارة الأوربيين ، والأخرى للإفريقيين ومدرسة أولية ، ومدرسة صناعية ، ومن هنا انتشر عملهم إلى الداخل .

٤ — بعثة الأصدقاء الصناعية — بيمبا : وكان اهتمامها منصبا عن مكافحة الرق وتجارة الرق . وسميت بهذا الاسم ، لأنها آمنت بأن أفضل طريق للتخلص من الرق هو تحويل العبيد إلى مواطنين نافعين يزاولون أعمالا مفيدة ، وكان رائد هذه البعثة هو تيودور بيرت الذى وصل إلى بيمبا عام ١٨٩٧ ، قبل صدور مرسوم إلغاء الوضع القانونى للرق ببضعة شهور .

ومن الجدير بالذكر أن المساعدة التى قدمها سلطان زنجبار للبعثات المسيحية كانت كبيرة للغاية ، ومع ذلك فقد أعطيت للاسلام فى مرحلة لاحقة صورة تظهره بمظهر أعدى أعداء المصالح الأوربية فى إفريقية . حتى أنهم كانوا يربطون العربى بالرق وكل أنواع الاستغلال .

- ١٣ -

زنجبار فى فترة الحماية البريطانية

بدأت نقطة التحول فى تاريخ زنجبار فى ٤ نوفمبر ١٨٩٠ عندما وضعت هى وبيمبا تحت الحماية البريطانية . وكان ذلك يعنى ببساطة وضع حكومتها وإدارتها مستقبلا فى أيدى مسئولين بريطانيين ، رغم أن الجزيرتين ظلتا تحت حكم السلطان . لكن السلطان لم يعد مستقلا ، أو يتمتع بسلطات واسعة ، وإنما مجرد حاكم اسمى للجزيرتين . ومن ثم سقطت تماماً فى أيدى آخرين ، إمبراطورية شرقى إفريقية المتسعة والطموحة التى أراد السيد سعيد بن سلطان بناءها . وكان ذلك نتيجة للتسابق الأوربى على افريقية ، وقد اتهم بعض الكتاب خلفاء السيد سعيد بالعجز عن إقامة حكم فعال وقوى فى المناطق على الساحل الشرقى لإفريقية ، وكان ذلك سببا فى سقوط امبراطوريتهم فى أيدى الغير .

وفى عام ١٩١٣ وبعد عامين من تولى السيد خليفة بن حارب ، ألغى مكتب الوزير الأول للسلطان والقنصل العام ، وأقيم مكتبان جديدان مكانهما للمقيم البريطانيين والسكرتير الأول . وفى نفس الوقت أنشئ مجلس محمية زنجبار برئاسة السيد خليفة ، والمقيم البريطانى نائبا للرئيس ، وعضوية ثلاثة أعضاء رسميين ، وأربعة غير رسميين لتمثيل مختلف السكان .

وفى ٥ سبتمبر ١٩٢٥ ألغى منصب المندوب السامى فى زنجبار الذى يشغله حاكم محمية شرقى أفريقية ، وأصبح المقيم البريطانى مسئولا مسئولية مباشرة ، عن المكتب . وحلت محل مجلس المحمية الذى أنشئ عام ١٩١٤ ، مجالس تنفيذية وتشريعية ، بدأت عملها فى أول مارس ١٩٢٦ ، وكان يرأس المجلس التنفيذى ، المقيم البريطانى ، مع ثلاثة

أعضاء مسئولين سابقين ، وستة أعضاء من غير المسئولين ، وكانت هذه أول مرة يشارك فيها شعب زنجبار حكومته فى إدارة شئونه . وفى عام ١٩٤٦ زاد عدد الأعضاء غير الرسميين واحدا ، وفى عام ١٩٤٧ زاد واحدا آخر ، لتمثيل الإفريقيين .

وفى عام ١٩٥٦ جرى توسيع المجلس ، وارتفع عدد الأعضاء غير الرسميين من ٨ إلى ١٢ ، ومنهم أربعة عرب ، وأربعة افريقيون وثلاثة هنود ، وأوربى واحد .

وكان هناك فى الوقت نفسه تمثيل عنصرى فى المجلس التشريعى ، ولكن ذلك توقف عندما صدر فى عام ١٩٥٦ المرسوم الخاص بالجنسية فى زنجبار . وأصبح الأعضاء غير الرسميين « أعضاء ممثلين » . كما عين فى الجانب الرسمى لأول مرة ثلاثة أعضاء من موظفى الحكومة ممن كانوا من رعايا سمو السلطان ؛ وعين فى المجلس التنفيذى ثلاثة أعضاء ممثلين ، وعهد إلى كل منهم بمسئوليته إحدى الإدارات الهامة فى الحكومة ، وبذلك أصبح ممثلو الشعب يشاركون لأول مرة فى إدارة شئون بلادهم .

كذلك أنشئ مجلس خاص لتقديم المشورة للسلطان ، فيما يتعلق بممارسة سلطاته . ويتكون من المقيم البريطانى ، والسكرتير الأول ، والمدعى العام وما لايزيد عن ثلاثة أعضاء آخرين يعينهم السلطان .

وفى مايو ١٩٥٧ تقرر بناء على توصيات مستر كوتس (السير والتر كوتس بعد ذلك) — أن يكون شغل مقاعد ستة من الأعضاء الممثلين الاثنى عشر بالانتخاب ، وستة بالتعيين من جانب السلطان طبقا لمشورة المقيم البريطانى ، واستنادا إلى طلبات مقدمة من أفراد ، وبحيث يكون كل منهم حاصلا على تأييد مائة صوت على الأقل .

وجرى زيادة المقاعد الستة التى يشغلها أشخاص منتخبون إلى ثمانية فى مايو ١٩٥٩ . ومع ذلك فإن هذا التغيير لم يوضع موضع التنفيذ قبل

موعد الانتخابات التالية ، وفى أغسطس من نفس العام سنت الحكومة قانونا يعطى المرأة هذا الامتياز .

ونتيجة لتوصيات سير هيلارى بلود المفوض الدستورى فى نوفمبر ١٩٦٠ عدل دستور المجلس التشريعى بحيث أصبح يضم اثنى وعشرين عضوا منتخباً وخمسة أعضاء يعينهم السلطان بناء على مشورة المقيم البريطانى ، وكان ذلك تغييرا هاما فى التاريخ الدستورى لزنجبار ، فقد أصبح يضم لأول مرة أغلبية من ممثلى الشعب فى المجلس التشريعى — يتمتعون بمسئوليات وزارية . ولم يعد المقيم البريطانى هو رئيس المجلس ، وحل محله رئيس منتخب من بين الأعضاء .

وأجريت ثانى انتخابات عامة فى زنجبار فى يناير ١٩٦١ لشغل جميع المقاعد الاثنى والعشرين . ووصل هذا الإجراء إلى طريق مسدود ، وتقرر تشكيل حكومة مؤقته تضم ممثلين عن كل حزب من الأحزاب السياسية الثلاثة ، وهى : الحزب الوطنى الزنجبارى ، والحزب الأفروشيرازى ، وحزب شعبى زنجبار وبيمبا ، مع وجود سكرتير مدنى يزاول مهام رئيس الوزراء ، ومن أجل تفادى مواجهة تغيير آخر ، زيد عدد الممثلين المنتخبين من ٢٢ عضوا إلى ٢٣ لثالث انتخابات عامة فى يونيو ١٩٦١ والتى أسفرت عن تشكيل حكومة ائتلافية ، من حزبين : الحزب الوطنى ازنجبار ، وحزب شعبى زنجبار وبيمبا ، وفى نوفمبر ١٩٦٢ أدخل نظام الاقتراع العام لجميع الذين بلغوا سن ٢١ عاما فما فوق .

وفى مايو ١٩٦٣ صدر المرسوم الدستورى ليحل محل مرسوم المجالس ، وحل محل المجلس التنفيذى ، مجلس وزراء يضم رئيس وزراء وعددا من الوزراء لايزيد عن سبعة . وأنشئت جمعية وطنية لتحل محل المجلس التشريعى ، وجميع أعضائها الواحد والثلاثين منتخبون .

وفى ٢٤ يونيو ١٩٦٣ — منحت زنجبار حكما ذاتيا داخليا و دستورا

جديدا بدأ سريان مفعوله فى نفس اليوم ، وأعقب ذلك إجراء رابع انتخابات عامة فى ٨ يوليو ١٩٦٣ ، ونتج عنها تشكيل حكومة من تحالف الحزب الوطنى الزنجبارى وحزب شعبى زنزبار وبيمبا .

ونتيجة للمناقشات التى جرت بين ممثلى الحكومة والمعارضة وبين الحكومة البريطانية ، أعلن يوم ١٠ ديسمبر ١٩٦٣ موعدا للاستقلال التام لزنجبار وبذلك انتهت الحماية البريطانية التى استمرت ٧٣ عاما . وتغير لقب السلطان بعد العاشر من ديسمبر ١٩٦٣ من سموه إلى جلالته .

ولم يدم هذا الاستقلال أكثر من شهر ، ففى ١١ يناير ١٩٦٤ صدرت من داخل افريقية إلى زنجبار عملية انقلاب دموى أطاحت بالحكومة الشرعية المنتخبة ، وقتل آلاف الأبرياء ، منهم كبار فى السن ونساء وأطفال ، غالبيتهم من العرب .

الثورة فى زنجبار ، ولماذا ؟

تكاد جميع الثورات التى وقعت فى أجزاء مختلفة من العالم أن تكون نتيجة فشل من جانب رئيس الدولة وحكومته فى أن يجعل شعبه يحقق الاحتياجات الأساسية للحياة .

وبشكل أو بآخر فإن مثل هذه الدولة ربما لا تملك من المصادر والتسهيلات ما يمكنها من تلبية حاجات المواطنين ، وإن القليل الذى تملكه يستخدم لمنفعة رئيس الدولة وبعض من رجاله المقربين ، ومثل هذه الظروف كفيلة باشعال ثورة لها ما يبررها ، وإن ما يبرر مثل هذا النوع من الثورات أنه جماهير الشعب تتعرض للموت جوعاً ، بينما رئيس الدولة ومساعدوه يتجاهلون حاجات الشعب ومشكلاته ولا يهتمون إلا بأنفسهم وبمصالحهم .

وهناك أنواع من الثورات الأيديولوجية ، حيث لا تحظى الحكومة القائمة برضاء قطاع معين من الناس .

فيعمد هؤلاء الساخطون إلى تنظيم أنفسهم ، ويسعون إلى الحصول على تأييد إحدى الدول الأجنبية التى تلتقى وجهة نظرها مع نوعية التغيير المطلوب .

وفى أغلب الأحوال يقوم بهذا النوع من الثورات عناصر تسعى إلى السلطة من أجل السلطة ، لا من أجل مصلحة الشعب ورفاهيته وتقدمه . وما إن تصل تلك العناصر إلى هدفها حتى تنقلب على مواطنيها وتتحول إلى إداة لتحقيق سياسة الدولة الأجنبية التى كانت تساعدها .

ومع ذلك فان الثورة فى زنجبار حدثت لأسباب مختلفة ، كما قد ذكرت أسباب مختلفة فى تبريرها ، وأغلب هذه المبررات أن السكان العرب كانوا

يستغلون الأفريقيين ، ومن هنا اكتسبت الثورة طابعاً عنصرياً ، وأن الثروة الوحيدة التي كان يملكها العرب هي الأرض ، لكن العرب لم يكونوا الفريق الوحيد الذي يمتلك الأراضي ، فقد كان هناك الهنود والأفريقيون أيضاً . والأرض نفسها لم تكن تعتبر في نظر أصحابها شيئاً هاماً ، غير أن أهميتها تكمن في مزارع القرنفل وجوز الهند التي كانت تضمها ، وعلى الرغم من وجود محاصيل أخرى كالمانجو والبرتقال غير أن تلك المحاصيل لم تكن تعتبر ثروة .

وبالتالي فإن من كان يرغب في زراعة محصول يوفر له الغذاء ، فانه يستطيع أن يفعل ذلك في أرض أي شخص — وإن كان ذلك يبدو غريباً — بدون إذن أو حتى علم صاحب الأرض . وكان المزارعون في زنجبار يعيشون فوق أراض مملوكة لغيرهم ، ويستغلونها لأنفسهم ، واذا أراد صاحب الأرض أن يحصل على شيء من المحصول ، فإنه يدفع فيه الثمن السائد في السوق . وإذا رفض فإن المزارع يستطيع أن يذهب بمحصوله الى السوق . لكن ثوار زنجبار لم يعدموا مبررات يخدعون بها العالم ، ويغطون بها على الحقائق السائدة في زنجبار .

وكان الحلم الذي روجوا له هو أنه بمجرد الاطاحة بالعرب ومصادرة أراضيهم ، وإعادة توزيعها على الافريقيين ، فإن كل فرد في البلاد سيصبح ثرياً . وعندما أخذ يتردد ذلك في أسماع الأفريقيين ، تصور كل واحد منهم أنه سيتحول الى شخص ثري له مكانته ومركزه في المجتمع .

ومع ذلك فان الإفريقيين لم يكونوا غافلين عن أن مثل ذلك العمل سوف يعني الانتحار الاقتصادي للبلاد . فليس في النظم الشيوعية ولا الرأسمالية ما ينص على أن تفتيت الأرض إلى ملكيات صغيرة ، يمكن أن يحقق فائدة اقتصادية .

ولقد جزئت الأرض في زنجبار إلى ملكيات صغيرة ، مساحة كلها منها

آكر واحد (فدان) ، ووزعت على الورثة غير الشرعيين للعرب الذين قتلوا أو سجنوا وجدير بالذكر أن الأرض الزراعية فى زنجبار مليئة بأشجار القرنفل وجوز الهند ، وهى أشجار تغل حاصلاتها موسميا ، ومن أجل الاعتماد عليها كملكية اقتصادية ، يلزم أن ينفق عليها الفرد أموالا طائلة للمحافظة على نظافة الأرض المزروعة ، وزرع أشجار أخرى بدل الأشجار التى تموت . وقد أغفلت السلطات هذه الحقيقة .

ونتيجة لذلك فإن الملاك الجدد قد أدركوا ، أنه لكى توتى الأرض بمحصول وفير فلابد عليهم من الإنفاق عليها ، وحيث إنهم غير قادرين على الإنفاق فقد اضطروا إلى ترك مزارعهم ، وآثروا الهروب إلى داخل البلاد للعمل فيها ، عمالا بالأجر .

وبالإضافة إلى تدهور جودة المحصول بسبب الآفات الزراعية فإن الحكومة أرغمت المزارعين على ألا يبيعوا محصول القرنفل إلا إليها ، وبأسعار تحددها وزارة الخارجية ، وكان السعر الذى تشترى به الحكومة الرطل من القرنفل هو ١٥٠ شلنا ، وتبيعه للولايات المتحدة الأمريكية بـ ١٧٠٠ شلنا .

ولم يكن سعر الشراء من المزارع هو دخله الصافى ، فقد كان عليه أن يشترى حصيرا لتجفيف القرنفل ، وبناء أكواخ موقتة فى موسم الحصاد ، وقضاء وقت ينشر فيه القرنفل على الحصير لتجفيفه فى الصباح ، ثم جمعه فى المساء ، أو فى وقت المطر الذى ينزل فى أى وقت .

وإذا أسعد الحظ المزارع فانه لا يكسب من زراعته ما كان يحصل عليه وهو عامل أجير ، إذ كان أجر العامل هو ١٥٠ شلنا كل ثلاثة أيام ، وكان عمل الأجير عبارة عن مجيئه فى الصباح فيصعد على أشجار القرنفل لجنيها ، ثم يأتى فى المساء ليفصل القرنفل من زهره ، ويستلم أجره ، أما باقى الأعمال فيقوم بها صاحب الأرض ، ولهذا فقد أصاب الوضع الجديد

الملاك الجدد بخيبة أمل ، وتبخرت فيه كل أحلامهم ، وأصبحت البلاد فقيرة في القوى البشرية نتيجة هجرة المثقفين منها ، العرب والإفريقيين على السواء ، ولجأ ما لا يقل عن مائة ألف منهم إلى دار السلام ، وذهب عشرون ألفا على الأقل ، ممن هم من أصل عربي إلى وطنهم الأصلي ، وطن آبائهم وأجدادهم .

ومن الغريب أن خطة الثورة — إذا استخدمنا هذا التعبير — لم ترسم بيد الإفريقيين وحدهم وإنما بمشاركة أبناء بعض ملاك الأرض العرب كذلك ، وهؤلاء كانوا مجموعة من الشباب بقيادة عبد الرحمن محمد الذي يعرف باسم « بابو » .

وكان بابو في البداية سكرتيرا عاما للحزب الوطني الزنجباري ثم اتصل بالصين عندما أوفده حزبه للحصول على تأييد بكين ، رقدعين وكيلا عن وكالة أنباء الصين الجديدة (صينهوا) ، وعمل من خلال نشرته المحلية التي أسماها « زانيوز » ، على نشر الأفكار الشيوعية في زنجبار وشكل مجموعة تسمى رابطة الشباب جعلها فرعا للحزب الوطني الزنجباري ، ثم أعاد تسميتها ، فأصبحت « حزب الأمة » عندما انفصل عن الحزب الوطني ، وكان توقيت انفصاله متفقا مع اقتراب موعد الانتخابات العامة ، بعد أن اقتنع بأن أيديولوجيته الشيوعية لا تجد صدى لدى زعماء الحزب الوطني الزنجباري .

وعندما فشل « بابو » في تحقيق أهدافه من خلال الحزب الوطني فإنه أدمج مجموعته مع الحزب الأفروشيرازي للقيام بثورة ، وأعتقد أنه سيتمكن بعد ذلك من التخلص من الحزب الأفروشيرازي ، وفرض النظام الشيوعي تحت قيادته . لكن ذلك لم يتحقق ، لأن أفكار شركائه الآخرين كانت تتعارض مع أفكاره . وأعلن زعماء الحزب الأفروشيرازي من على منصات الخطابة أنهم سيظلون في حاجة لخدمات أصدقائهم طالما أنهم لا يملكون الثراء والتعلم . وبذلك أقنعوا هؤلاء الأصدقاء بأن وجودهم سوف يستمر

إذا وصل الحزب الأفرو شيرازى إلى السلطة . ولذلك أعطوا تأييدهم الكامل لخطط الأفرو شيرازى للقيام بانقلاب .

وفى يوم ٧ يناير ١٩٦٤ وصلت إلى دار السلام سفينة اسمها « ابن خلدون » تحمل شحنة عسكرية قيل أنها متجهة إلى الداخل لاستخدامها فى تحرير إفريقية . لكن السلطات فى دار السلام — بأحلامها التوسعية . استخدمت الشحنة لصالح البلد المستقل حديثا . ولذلك فإن الأصدقاء فى زنجبار الذين ظلوا يسيطرون على القوة الصغيرة المجهزة بالمركبات الميكانيكية فى زنجبار قد أعطوا تصريحا لمعظم الجنود لحضور مهرجان ينظمه الحزب الأفرشيرازى مساء ١١ يناير ، وتم ذلك بتنسيق تام فيما بين المجموعات الثلاث المعينة . وقامت سلطات دار السلام بتهريب الجنود والأسلحة واقتحام ثكنات قوة المركبات الميكانيكية التى خلت من جنودها ومهاجمة مقر قيادة البوليس بأسلحة من الثكنات ومن دار السلام .

وحاول الرجال داخل مقر البوليس المقاومة — ولكن لم يكن لديهم أمل فى النجاح — فنصحوا السلطان بمغادرة البلاد . فاستقل سفينته بمساعدة بعض المسئولين المهتمين بسلامته . وبعد فترة غادر دار السلام إلى انجلترا . وبدأ الصراع على السلطة . فقد كان الأصدقاء يعتبرون أعداء ، وبدأ الخبراء والمستشارون من الدول الشيوعية يتدفقون على البلاد ، وبعد أن أقاموا علاقات مع الأهالى فإنهم تجاهلوا « بابو » الذى أتى بهم إلى البلاد ، وعملت سلطات دار السلام من أجل إقامة وحدة : وفى النهاية كان مصير بابو السجن فى دار السلام ، كما حكم على كثيرين من أنصاره بالإعدام ، وهرب بعضهم من البلاد . أما العرب الذين نجوا من الموت فقد توجهوا إلى وطنهم الأم ، وأرسل المفوض العام لشئون اللاجئين بالتعاون مع الصليب الأحمر سعياً إلى زنجبار لنقل العرب إلى دبى حيث استقبلوا هناك بقلوب مفتوحة .

ولكى نفهم لماذا وقعت الثورة فى زنجبار فإنه لابد من الرجوع إلى

التاريخ . لقد رأينا كيف أن الرياح الموسمية التي تهب على المحيط الهندى كانت تدفع العرب إلى القيام برحلات إلى شرقى أفريقية وإقامة علاقات مع سكانه . وبسبب تلك العلاقات وجد الإسلام طريقه إلى شرق أفريقية ، وقد استمرت العلاقات الاجتماعية والثقافية من العرب وبين سكان شرقى أفريقية سنوات غير أنه من الصعب تتبع خطوط تلك العلاقات بدقة بسبب ارتباطات الدم بين العرب والإفريقيين .وكان اكتشاف طريق البحر إلى الهند والذى يعود الفضل فيه إلى العمانيين سببا فى وصول الأوربيين إلى أفريقية الشرقية الذين لمسوا عن كثب متانة العلاقات العربية الإفريقية . وقد بذلت تلك الدول قصارى جهدها لخلق شعور من عدم الثقة بين الأفريقيين وبين العرب من أجل تسهيل تقسيم الأرض الافريقية فيما بينها . . وقد دخل الحكم البرتغالى إلى شرق أفريقية عن طريق القهر البالغ والتعذيب ، وكان الافريقيون يلجأون إلى العرب طلبا للعون . . وكان العرب يقدمون يد المساعدة دون شروط لأصدقائهم الافريقيين فيتمكنون من إلغاء الحكم البرتغالى الذى استمر لسوء الحظ فى موزمبيق حتى عام ١٩٧٥ . . وتأسست الحكومة العربية فى شرق إفريقية بعد طرد البرتغاليين نهائيا ، ثم اقتصرت على زنجبار عندما بدأت الدول الأوربية الأخرى « السباق على إفريقية » ، وقد لاقت هذه الدول صعوبات فى تحقيق أحلامها بسبب الوجود العربى ، ولذلك فقد أخذت تبحث عن وسائل وأسباب لإنهاء الوجود العربى هناك ، فبدأت بترويج الأكاذيب ، ثم أخيرا باستخدام القوة .

ولعل الحاجة لتكثيف الدعاية ضد العرب قد ظهرت عندما رفض السيد برغش بن سعيد سلطان زنجبار التعاون مع الألمان ضد مصالح شعبه الساحل فى تنجانيقا ،ويعود ذلك إلى عام ١٨٨٨ م عندما سيطرت الشركة الألمانية لشرق أفريقية رسمياً على إدارة ساحل تنجانيقا . . وعندما اكتشف الأهالى هناك التدفق المفاجىء لأعداد كبيرة من الأوربيين إلى بلادهم . . فإنهم نظموا ثورة هاجموا خلالها الألمان وذهب الألمان الذين استطاعوا الهرب إلى زنجبار للاحتجاج لدى السلطان ، وكان رد السلطان

الذى أجاب به على احتجاجهم ، هو أن هؤلاء الأهالى أحرار ، وهم ليسوا عبيدا لى ، ولا يمكننى أن أسلمهم إليكم ، فهم يتبعوننى بمحض إرادتهم ، ولقد أعطيتكم الموانىء بايجار ، لتجمعوا العوائد منها ، وإذا كنتم قد أسأتم معاملة الأهالى فلا تلوموا إلا أنفسكم ، وهذا هو ردى عليكم »

ولقد حاول الألمان إقناع السلطان باستخدام القوة لإخماد ثورة الأهالى ولكنه رفض بشدة قائلا « إن سياستنا تقوم على حسن المعاملة ، وليس على القوة فى حكم الشعوب »

وعقب هذا الحادث تعرض الأهالى لحصار بحرى فرضه عليهم الألمان والإنجليز لمدة عام تقريباً ، من ٢ ديسمبر سنة ١٨٨٨ إلى أول أكتوبر سنة ١٨٨٩ .

ولم تنته لعبة الاستعمار[٣] الأوربى عند هذا الحد ، واستمرت ، وانتهت إلى توقيع اتفاق انجلو ألمانى ، فى برلين ، فى أول يوليه سنة ١٨٩٠ .

وكان الهدف من هـذا الاتفاق هو حمل السلطان على مشاركتهم فيما يزمعونه من إجراءات ، لكن السلطان كان بطىء الرد عليهم ، وأمكنهم هذا من النجاح عام ١٨٩٠ ، عن طريق التهديد والمؤامرات والمكائد ، فى جعل شرقى أفريقية كله ، وليست زنجبار وحدها ممتلكات للدول الغربية .

وينتقد بعض الكتاب سلطان زنجبار ، ويحملونه ، بسبب تصرفه هذا تبعية ما تلا هـذا الموقف من حوادث ، وأنه لم يستطع الاحتفاظ بقوته فى شرقى إفريقية .

وقد ذكر المؤرخ البريطانى ، هولنج ورث ، أن انجلترا سمحت لألمانيا بأخذ خير الأجزاء من ممتلكات السلطان وأنها أخذت لنفسها الباقى .

وأننا لنجد أسبابا تشككك فى صحة البيان الذى أدلى به (سير فرجسون)

وكيل وزارة الخارجية البريطانية فى البرلمان الإنجليزى يوم ٢٤ يوليه سنة ١٨٩٠ ، من أنه ليس صحيحا : أن بريطانيا فرضت حمايتها على زنجبار كوسيلة لعرقلة نشاط أى دولة تجارية أخرى ، أو للتدخل فى سلطات السلطان .

ويقول وكيل وزارة الخارجية البريطانية : إن السياسة البريطانية نحو الشرق خلال الثلاثين عاما الماضية لم تكن تتدخل فى سيادة الحكام المحليين ، ولكنها كانت تضمن لهم ممتلكاتهم ، وتجعلها أكثر أمنا ، وشعوبها أكثر سعادة ، وفى نفس الوقت يزاول حكامها استقلالهم .

وإن المرء ليتعجب من هذا القول ، ولا يمكنه إلا أن يشير إلى ٧٣عاما من عدم التدخل فى اختصاصات السلطات المحلية ، فهى المدة التى زرعت الفرقة والبغض وأقامت النزاعات والخلاف والتوتر بين أفراد شعب عاش فى ظل وحدة وطنية لاينظرون فيها إلى الأصول التاريخية .

وإن رفض الحكومة البريطانية حماية زنجبار أثناء الانقلاب الدموى فى يناير سنة ١٩٦٤ بعد شهر واحد من استقلالها من سيطرة بريطانيا التى استمرت ٧٣ عاما ، لهو شاهد أيضا ، ويمكن ربطه بحادث آخر وقع عام ١٨٨٤ ، ففى ذلك العام هاجمت السفن الحربية الألمانية زنجبار ، فلجأ السلطان إلى بريطانيا لمساعدته ، فرفضت بريطانيا طلبه .

ويقول المؤرخ الانجليزى الدكتور هولنجزورث ، تعليقا على حادث ١٨٨٤ م : « على الرغم من ولاء السلطان برغش لبريطانيا فإنه لم يحصل على أى مساعدة من الحكومة البريطانية عندما واجهته فجأة مطالب الألمان فى مطلع عام ١٨٨٥ . . ومرة أخرى ، فإن كيرك لم يفعل شيئا لمساعدة السلطان ، لأن التعليمات التى وصلته من وزارة الخارجية البريطانية أرغمته على إقناع السيد برغش بالإذعان لمطالب الألمان » .

وهذا نتيجة لاتفاق ألمانى بريطانى ، على أنه لابد أن يكون السيد

برغش ضحية للسباق نحو إفريقية ، مثله فى ذلك مثل أى حاكم آخر فى إفريقية ، جنوب الصحراء .

وإن الذى حدث بعد ذلك كان مجرد مناورات للتغطية على الخطط الاستعمارية ضد الحكام الضعفاء الذين كانوا يجهلون مصائرهم .

ولا يمكن للمرء أن يلوم هؤلاء الحكام على الطريقة التى أخضعوا بها أنفسهم ومصالح شعوبهم للاستعماريين ، فلقد اعتقدوا صدق المستعمرين فى مزاعمهم عن إقامة حكومة مستقرة ، وفرض القانون والنظام ، ومعالجة الأمراض وتنمية البلاد ، وتطوير الأحوال المعيشية .

ومن وراء هذا المظهر الخادع بدأ الاستعماريون بإرسال البعثات التبشيرية لتهدئة الإفريقيين ، وجاء فى أعقاب المبشرين إنشاء حكومات استعمارية ، وبالتالى فقد كان من الضرورى أن يتبع ذلك فرض القانون والنظام وتنمية الأراضى والخدمات الصحية ، وهذه كلها كانت شروطاً لازمة لاستغلال المواد الأولية فى هذه المستعمرات لصالح المستعمرين .

وبدلا من أن يستخدم الأووبيون الأهالى فى الأعمال المكتبية فإنهم استوردوا أجانب من دول أخرى لشغل الوظائف الأقل مرتبة فى الجهاز الإدارى وتشجيع نفس هؤلاء الناس على احتكار التجارة ، ولم تفرض الدول الاستعمارية قيودا على الهجرة إلى تلك البلاد إلا بعد أن بدأ المهاجرون فى تهديد مصالح الاستعماريين .

ومهما اختلفت الأساليب التى اتبعتها تلك الدول إلا أنها جميعا كانت تشكل فريقا واحداً ، له سياسة تمليها مصالح مشتركة ، هى الاستحواذ على الأراضى لاستغلال المواد الأولية وخلق أسواق للمنتجات . وكان الدين قناعا يخفى عمليات خدمة المصالح الحقيقية .

ولم تقف فرنسا مكتوفة اليدين عندما وقع الاتفاق الأنجلو ألمانى

وإن كانت قد أحتجت لانتهاك اتفاقها مع بريطانيا . وكان الاتفاق الأنجلو - فرنسى الموقع عام ١٨٦٢ يلزم البلدين باحترام استقلال زنجبار ولذلك طلبت فرنسا من بريطانيا تعويضا عن ذلك الإجراء . وقد أدى الأجتماع الفرنسى إلى توقيع اتفاق انجلو - فرنسى آخر فى ٥ أغسطس ١٨٩٠ ينص على أن تسحب فرنسا بمقتضاه اعتراضها على الحماية البريطانية على زنجبار ، وأن تعترف بريطانيا بمطالب فرنسا فى مدغشقر ، وبذلك كان الافريقيون وأراضيهم نهبا للتقسيم بين الدول التى كانت تزعم أنها جاءت كدول صديقة . وبعد أن نجحت الدول الاستعمارية فى تقسيم شرق إفريقية إلى وحدات سياسية واصلت تقسيم شعوبها إلى مجموعات صغيرة . وكانت هناك ١٧ مجموعة تختص كل منها بمصالحها الذاتية وليس بالمصالح الوطنية .

وخلال الحرب العالمية الثانية سمح للأهالى من أصل آسيوى بشراء الأرز والسكر والمنسوجات البيضاء ، بينما سمح للافريقيين بشراء دقيق الذرة والأقمشة السوداء لنسائهم . . وكان تجمع الآسيويين أمام مكتب الرقابة على الأغذية مريعا ، فقد كان ذلك الأسلوب تجسيدا لتطبيق مبدأ فرق تسد .

لقد مهد نظام الرقابة على التغذية طريقا لإشاعة الكراهية العنصرية .

ولذلك فإن تتبع جذور انقلاب زنجبار يقتضى تتبع تاريخ الاستعمار نفسه ، فقد أتاحت فترة التنافس على أفريقية فرصاً كثيرة لزرع بذور الكراهية العنصرية . . وقبل عام ١٩٦٤ كان الأعضاء المعينون فى المجلس التشريعى الذين يمثلون مختلف المجموعات العنصرية هم ٣ عرب و ٢ افريقيون و ٢ هنود ، وأوربى واحد . . ولم يكن لهؤلاء الممثلين أى نفوذ فى المجلس ، لأن كل السلطات كانت يد المقيم البريطانى وحفنة من المسئولين البريطانيين الذين يسيطرون على الشئون التشريعية . . ورغم أن العرب كانوا أقلية فإنهم أعطوا معظم الامتيازات لمجرد إثارة الكراهية

العنصرية . . والحقيقة أنها لم تكن امتيازات حقيقية ، ولكنها كانت امتيازات مظهرية .

وقد أدرك العرب فى النهاية حقيقة الخطر وعملوا على تجنبه عندما قدمت اللجنة التنفيذية إلى الحكومة البريطانية فى يونيو ١٩٥٤ قائمة طويلة بمطالب ، اعتبرتها مناسبة لتحقيق نهضة سياسية تقدم لشعب زنجبار كله بصفة عامة وكانت هذه المطالب تتضمن الاقتراع العام للبالغين وانتخابات على أساس صوت واحد لكل رجل وأغلبية غير رسمية من الأعضاء المنتخبين فى المجلس التشريعى ونظام وزارى وملكية دستورية ، وكما كان متوقعاً فقد رفضت الحكومة البريطانية المطالب كلها ، ولذلك سحبت المجموعة العربية أعضاءها من المجالس وقاطعت كل اللجان الحكومية وامتنعت طوال ١٨ شهراً عن التعامل مع الحكومة البريطانية ، وناشدت المجموعة العربية كل المجموعات الأخرى بتأييدها . وكان ذلك إصراراً منها على إقرار السلام الذى عرفت به زنجبار فى العالم كله ، ولقى ذلك الموقف تأييداً إجماعيا فى البلاد ، وكان طريقا مضموناً لتحقيق الوحدة الوطنية . . ولما كانت الحكومة البريطانية تدرك تماما نتائج تلك الوحدة فإنها عملت على هدمها ، ودبرت حملات سرية لتهديد الجماعات العنصرية الأخرى ومنعها من وضع يدها فى يد العرب . . وسيدهش القارىء إذا علم أن هذه المجموعة المميزة عرضت نفسها لفقد امتيازاتها والنضال من أجل حقوق الأغلبية ، ولقد حدث ذلك فى زنجبار . وقد يتساءل القارىء . . لماذا ؟ والسبب هو أن العرب اتخذوا من زنجبار وطنهم طوال عشرات السنين . . والعرب وحدهم هم الذين تزاوجوا مع الافريقيين وعاشوا معهم إلى حد أنهم كانوا يتكلمون لغتهم .

وعندما بلغت المقاطعة العربية شهرها الثامن عشر فى ديسمبر ١٩٥٥ فإن مجموعة صغيرة من الفلاحين الذين أحسوا بالأخطار القادمة للسياسات العنصرية أعلنوا تشكيل الحزب الوطنى الزنجبارى الذى ناضل لتوحيد

الشعب تحت شعار واحد ، هو القومية من أجل التخلص من السياسات التى سعت لتدعيم التقسيمات العنصرية ،وقد شجعت تلك الخطوة المجموعة العربية التى لم تتردد فى تأييدهم تأييداً كاملا ٠٠ أما الوطنيون فقد قاموا من جانبهم بتأييد كل مطالب المجموعة العربية ، وقام زعماؤهم بالعمل ليل نهار ، وزيارة القرى ليشرحوا للشعب أهدافهم الوطنية « وهى الوحدة والعدالة الاجتماعية والاقتصادية ونبذ العنصرية والاستقلال العاجل ، ووافق الكثيرون وانضموا إلى تلك الحركة ٠

وأحدثت ضغوط هذه الأحداث حالة من القلق لدى السلطات فبدأت حملات ضد المجموعة العربية التى أصبحت بدورها أكثر قوة وتصميماً ٠

ولقد أرغمت مطالب الوطنيين الحكومة على الموافقة على تخصيص ٦ مقاعد منتخبة من بين الـ ٢٥ مقعدا فى المجلس التشريعى ، ثم شغل الحزب بالاعداد للانتخابات ، ومع ذلك فإن السلطات ومؤيديها المحليين بالإضافة إلى حفنة من الصحفيين لم يوقفوا حملاتهم ضد الحزب الوطنى ٠٠ لكن كلما زادوا من حملاتهم كلما زادت شعبية الحزب إلى أن وجدت السلطات أن الحل هو تشجيع وتشكيل حزب منافس على أسس عنصرية ، ولذلك تم تشكيل الحزب الأفرو شيرازى فى ١٩٥٧ ليدخل الانتخابات فى يوليو ١٩٥٧ ، ولما كانت السلطات تدرك أن الحزب الوطنى يمثل التهديد الحقيقى لمركزها فإنها جاهدت لتقويضه ،وقد اعترف « بينى » الذى أشرف على انتخابات ١٩٥٧ فى تقريره ، بأن مكتب الانتخابات التابع له وموظفى الحكومة كانوا وراء تشكيل الحزب الافرو شيرازى لكى يعارض الحزب الوطنى وليس الاستعمار البريطانى ٠

ويبين تقرير « بيفى » نوع الحكومة التى أرادت السلطات أقامتها فى زنجبار ، ومن الغريب أن نفس هذه السلطات لم تسمح فحسب بل إنها شجعت إقامة نظام الحزب الواحد فى تنجانيقا المجاورة ٠٠ وكان حزب الاتحاد الوطنى

الافريقى لتنجانيقا هو أول حزب سياسى يشكل بها، أما الحزب المنافس الذى شكله المستوطنون فإنه حزب تنجانيقا المتحدة ، لكن هذا الحزب تم حله للسماح لحزب الاتحاد الوطنى الأفريقى لتنجانيقا بالبقاء ، وحتى الأثاث الفاخر الذى كان يخص الحزب المنحل أخذ وقدم هدية للحزب الآخر ، وكان سلوك الإدارة الاستعمارية متحيزاً بوضوح . . وكان أول ضحية فى زنجبار لتلك الإدارة هو السيد سيف حمود بن فيصل آل سعيد الذى أيد الاقتراع العام وفكرة رعايا زنجبار من القومية الزنجبارية والاستقلال الفورى للجزيرة . . ورغم أن أى حملة ضد الأسس العنصرية كانت تعتبر مضادة لقانون الانتخاب المعلن إلا أن الحكومة شجعت الحزب الأفرو شيرازى على القيام بذلك علنا . . بل إنها شاركت فى الحملة لصالحه ، وذهب أنصار الحزب الوطنى الزنجبارى إلى صناديق الانتخاب بمنشورات تطالب برفع مستوى المعيشة وتأمينات لكبار السن والعاطلين وتنمية الزراعة واستغلال المصادر الطبيعية وغير ذلك من المطالب ، لكن أنصار الحزب الآخر لم يكن لديهم ما يطالبون به سوى تكثيف المشاعر العنصرية والطبقية وتضليل الرأى العام ، وأسفرت الانتخابات عن هزيمة كاملة للحزب الوطنى الزنجبارى وحصل الحزب الافرو شيرازى على خمسة مقاعد وذهب مقعد واحد لجمعية المسلمين الهنود . . وكانت هذه النتيجة مفاجئة للكثيرين الذين يعرفون نشاط الحزب الوطنى فى شرق إفريقية .

وبعد عدة انتخابات أخرى فاز تحالف الحزب الوطنى الزنجبارى وحزب شعبى زنجبار وبيمبا بأغلبية المقاعد وشكل الحكومة ، وحدد يوم العاشر من ديسمبر ١٩٦٣ موعداً لاستقلال زنجبار وبعد ذلك بشهر واحد فى ١١ يناير ١٩٦٤ وقع الانقلاب الدموى الذى أنهى العلاقة الطويلة للعرب بالافريقيين والتى استمرت أكثر من ثلاثة آلاف عام وبعد ١٤ عاما من الثورة أدركت سلطات زنجبار أن السياسية العنصرية ألحقت بها أضراراً جسيمة ، وهى تحاول الآن حث العرب على العودة إلى زنجبار والمساعدة فى إحياء اقتصاد البلاد .

وفى كثير من بلاد العالم يحظى المقاتلون من أجل الحرية باحترام كبير ، ولكن العرب زنجبار والذين قاموا بدور بارز من أجل استقلال البلاد وبدأوا التحرك من أجل الاستقلال قد فقدوا كل امتيازاتهم . . فهم الذين بدأوا بمقاطعة المجلس التشريعى وكل أوجه النشاط الحكومى من أجل الاستقلال ،ولكنهم فى المقابل عوملوا كأعداء ، وقتلوا ، وعذبوا بلا رحمة ، وطردوا من بلادهم مجردين من كل ما يملكون .

ومع ذلك فإن من المستحيل قطع الروابط الاجتماعية مع أهالى شرقى إفريقية خاصة فى زنجبار والمدن الساحلية فى كينيا وتنزانيا فإن التزاوج العربى الافريقى خلق رابطة أبدية وعلاقة ستستمر إلى مالا نهاية بينهما .

وبعد أن أنفقت سلطات زنجبار الاحتياطيات الكبيرة التى ورثتها عن الحكومة السابقة فانها أدركت أن الكراهية لا يمكن أن تسود ،فالثروة التى حصلت عليها من خلال مصادرة الممتلكات قد انفقت بغير حساب وأصبحت البلاد فقيرة فى القوة البشرية والاحتياطيات المالية .

والآن فان الحكومة قد فتحت الباب للمهاجرين الذين يرغبون فى العودة وبعثت بوفد خاص إلى دول الخليج لإقناع الناس الذين طردوا أو هربوا بالعودة إلى زنجبار .

– ١٥ –

عمان وعهد ما قبل السلطان قابوس

عندما تولى السيد سعيد بن تيمور والد السلطان قابوس الحكم عام ١٩٣١ كانت عمان فى حالة فقر اقتصادى ، فقد كانت الخزينة فارغة تماما ، قد ظل هذا الوضع قائما منذ وفاة السيد سعيد بن سلطان الكبير عام ١٨٥٦ وكان سببا فى تقسيم المملكة إلى دولتين هما عمان وزنجبار ، وكانت تقف وراء هذه الحالة مجموعة من العوامل ، مثل تدهور القوة البحرية العمانية بعد ظهور السفن التجارية وتضاؤل الصادرات بحيث أصبحت كمية صغيرة من السمك والبلح ، والاعتماد الكامل فى الدخل على العوائد الجمركية ، وعدم السداد المنتظم للإعانة المالية التى كانت تحصل عليها عمان من زنجبار ، ولذلك لم يكن دخل البلاد يكفى لمواجهة النفقات ، ولذلك قرر السيد سعيد ابن تيمور الاعتماد على الدخل الضئيل وموازنة الدخل والإنفاق دون أى عجز مالى .

ولما كان السيد سعيد يرفض تفويض مسئولياته لأى شخص آخر فإنه كان يباشر كل شىء بنفسه حتى إنه عندما لم يكن فى وضع يسمح بمباشرة الأمور فإنه يطلب ممن يجب أن تعرض أمورهم عليه أن ينتظروا حتى يتمكن من بحث أمورهم بنفسه ، مما أدى إلى البطء الشديد فى تصريف الأمور ، وكان عقبة فى سبيل تقدم البلاد .

ولقد جاء وقت فى عام ١٩٥٨ كان لابد فيه على السيد سعيد أن يطلب المساعدة من بريطانيا بعد ما وقعت اضطرابات داخلية فى عمان بسبب الإمامة ، وأوفدت بريطانيا « جولين إمرى » إلى مسقط للبحث مع السلطان ن طبيعة هذه المساعدة التى يطلبها .

وقد تم الاتفاق على تبادل الخطابات ، وشملت المساعدات تطوير

القوات المسلحة ، والطيران المدنى ، وتقديم بعض الخدمات للقوات الجوية ، وعدة مشروعات أخرى للتنمية الاقتصادية فى مسقط وعمان .

وفى أعقاب توقيع هذا الاتفاق فى لندن يوم ٢٥ يوليه ١٩٧٨ أنشئت قوات السلطان المسلحة ، وقوات عمان الجوية ، وأما فيما يتعلق بالمساعدة الخاصة بالتنمية فلم تكن هناك شروط حول الكيفية التى سيتم إنفاق الأموال ، ولذلك فإن السلطان قد وضع خططه التى يراها فى هذا الشأن .

وفى نوفمبر ١٩٦٤ أعلنت شركة تنمية بترول عمان أنها عثرت على بترول بكميات تجارية ، وأعلنت عن البدء فى تصديرها عام ١٩٦٧ .

وإزاء هذه التطورات الاقتصادية أبلغت الحكومة البريطانية السلطان ، بأنها ستوقف المعونات العسكرية ومعونات التنمية عندما يبدأ السلطان فى استلام عوائد البترول .

ولقد كان هذا الدخل الجديد بمثابة الضوء الأخضر الذى يعلن نهاية الليل الطويل ، وبداية الفجر المشرق على عمان . « ولقد بدأ السلطان ببعض المشروعات الهيكلية . .

وفى هذه الفترة أصدر السلطان بيان عاما قال فيه « أولا : يجب أن نبدأ ببناء مكاتب لمختلف الإدارات الحكومية . . ثم مساكن للمسئولين الذين سيأتون من الخارج ثم القيام خطوة خطوة بمشروعات مختلفة ، مثل المستشفيات ، والمدارس ، والطرق ، والمواصلات ، والأعمال الضرورية الأخرى ، بما فى ذلك تنمية مصادر الثروة الزراعية والحيوانية والسمكية .» حتى تمتد المشروعات الحديثة فوق السلطنة كلها وتصل لكل منطقة حسب احتياجاتها » « ثم بعد ذلك سوف ندعم الجهاز الحكومى بتزويده بعدد من الخبراء والفنيين نظراً لأن هناك ضرورة لإحداث تغييرات فى الجهاز الحكومى القائم » .

وحتى ذلك الوقت كان السيد أحمد بن إبراهيم هو الوزير الوحيد في الحكومة ، وكانت مسئولياته هي الإشراف على الشئون الداخلية والقبلية ، وكان السلطان نفسه يعيش فى عزلة تامة فى صلالة ، وكانت المدن الرئيسية تحكم بواسطة ولاة مسئولين مباشرة أمام وزير الداخلية ... وكانت هناك حلقة ربط أخرى فى نظام الرقابة الإدارية فى الداخل ، من خلال الشيوخ (رؤساء القبائل) والشيوخ كانوا مسئولين أمام السلطان من خلال الولاة ، ومن خلال الولاة أمام وزير الداخلية ، وكانت الأمور الأخرى تحت رعاية سكرتيرين يرأسون بعض الإدارات .

وكانت الخدمات الاجتماعية من اختصاص إدارة التنمية التى أنشئت فى عام ١٩٥٩ للتصرف فى المعونة المقدمة من بريطانيا بمقتضى اتفاق عام ١٩٥٨ .

وقد باشرت الإدارة نشاطها فى ثلاثة قطاعات ، هى الصحة ، والزراعة ، والأشغال العامة .

وفى مجال الصحة أنشئت عدة عيادات فى أنحاء البلاد ، وكان يقوم بالخدمة فى هذه العيادات ممرضون من الرجال ، كما أقيمت المستشفيات التى يشرف عليها أطباء ، ويعاونهم فيها هيئات تمريض من الرجال .

وكان المستشفى الوحيد المناسب هو مستشفى البعثة الأمريكية فى مطرح ، وفى مجال الزراعة أنشئت مزرعتان تجريبيتان فى نزوى وفى صحار ، ولكنهما لم تحققا نتائج إيجابية بسبب قلة الاعتمادات المالية .

وفى مجال الأشغال العامة كان الإنجاز الوحيد هو شق طريق ، طوله مائة وخمسون ميلا ، من العذيبة إلى صحار .

وعندما تأكد أن أول شحنة من البترول سوف يتم تصديرها فى أغسطس سنة ١٩٦٧ بادرت بريطانيا بوقف معونتها المالية إبتداء من مارس

عام ١٩٦٧ (نفس العام) أى قبل ستة أشهر من تصدير أو شحنة من البترول .

وأصدر السلطان بيانا قال فيه : « إننا سنعتمد خلال هذه الفترة الانتقالية على احتياطياتنا المالية » .

وابتداء من أغسطس ١٩٦٧ عندما بدأ تصدير البترول حاول السلطان الوفاء بوعده ، وعين فى أوائل ١٩٦٦ مستشاراً كلف باعداد وتنفيذ خطة التنمية الاقليمية فى مسقط ومطرح .. وتم إعداد الخطة بالتشاور مع السلطان، وبعد أن قبلها من حيث المبدأ .

بدأ العمل بإنشاء مساكن المسئولين فى الحكومة ، والمكاتب ، ومكتب جديد للبريد ومدرسة للبنات ، ومستشفى فى مسقط ، ومشروع للمياه . . وكان مشروع المياه . . هو أضخم مشروع وقدرت تكاليفه بحوالى مليون جنيه ، وتضمنت المشروعات الأخرى مد الكهرباء إلى مطرح و مسقط ، و ميناء مطرح ،وقد أسندت إدارة مشروع الكهرباء إلى شركة خاصة غالبية ملاك اسهمها من التجار البريطانيين ، . وكانت الكهرباء والمياه والميناء هى أكثر المشروعات احتياجا لأهميتها ولأنها تعتبر علامة ملموسة على طريق التقدم . . وكانت هناك مشروعات أخرى للزراعة أصبحت فيما بعد رصيداً للبلاد تأتى بعدالبترول والمصادر المعدنية ، ويوضح تاريخ التعليم الرعاية التى بذلها السلطان لتعليم الشعب ،ورغم أن التعليم ضرورى جداً لعمان إلا أن تقدمه كان بطيئاجدا فى الماضى . . وأول مدرسة عامة أنشئت كانت فى عام ١٩١٤، وأنشئت مدرسة أخرى تسمى السلطانية عام ١٩٢٧ ، وقد أغلقت بعدذلك بسنتين ، ثم أعيد فتحها واستمرت حتى عام ١٩٤٠ عندما افتتحت فى مسقط مدرسة جديدة اسمها السعيدية ،وفى عام ١٩٥٩ افتتحت مدرسة سعيدية أخرى فى مطرح بالاستفادة من المعونة البريطانية .

وفى عام ١٩٦٤ أنشىء مبنى آخر ملحق بمدرسة مسقط ولكنه لم يستخدم على الاطلاق.. وكان فى كل من المدرستين (مدرسة مسقط ومدرسة مطرح) ثمانية فصول ، فى كل منها أربعون تلميذاً ، ولم يكن مستوى التعليم فى هاتين

المدرستين أعلى منه فى التعليم الإبتدائى ٠٠ولم يسمح بإقامة مدارس خاصة ٠٠ وحدث أن بعض التجار المحليين فى صور اشتركوا معاً فى تمويل إقامة مدرسة ولكن الأوامر صدرت لهم بوقف المشروع عندما بلغت أنباؤه إلى السلطان ٠٠

أما الشباب القليلون الذين استطاعوا الخروج من البلاد للتعليم فلم يكن موثوق فيهم بعد عودتهم وكان كثير من الشباب قد خرجوا من البلاد بالطرق القانونية ليتعلموا فى الكويت والبحرين والعراق والقاهرة بل وحتى روسيا وقد تفرق هؤلاء الذين تخرجوا قبل عام ١٩٧٠ فى كثير من أنحاء العالم العربى وعملوا مهندسين ومدرسين وأطباء .. الخ .

ولم يكن أحد يستطيع العودة إلى عمان فى ظل تلك الظروف وكان معدل الرسوم الجمركية كبيرا ، ولذلك فإن اقتصاد البلاد كان محصوراً داخل حدودها ، فلم تكن الرسوم تفرض فقط على السلع المستوردة من خارج البلاد بل أيضاً على السلع القادمة من العاصمة إلى الداخل ٠٠ وكان معدل الرسوم ٥٪ ولكنه رفع إلى ٢٥ ٪ عام ١٩٢٠ كعقاب للأهالى فى الداخل لثورتهم ضد السلطان ، ولقى ذلك معارضة قوية من سكان الداخل ونتيجة لذلك جرت مفاوضات بين السلطان وبين الشيخ عيسى بن صالح بن على كممثل للعمانيين فى الداخل والمفوض السياسى البريطانى مستر ونجت كوسيط ، وتم توقيع معاهدة فى السيب فى ٢٥ سبتمبر ١٩٢٠ وكانت تتضمن ثمانية بنود : أربعة تخص شعب عمان ، وأربعة تخص شعب حكومة السلطان :

والتى تخص شعب عمان هى : –

١ – لا يحصل من أى فرد أكثر من ٥ ٪ بصرف النظر عما إذا كان قادما من الداخل إلى مسقط أو مطرح أو صور أو بقية مدن الساحل .

٢ – يتمتع العمانيون سكان الداخل بالأمن والحرية فى جميع مدن الساحل .

٣ – ترفع كل القيود على أى فرد يدخل أو يخرج من مسقط ومطرح وغيرهما من المدن .

٤ – لا تمنح حكومة السلطان حق اللجوء لأى مجرم يهرب من عدالة عمان الداخلية ولا تتدخل فى شئونهم الداخلية .

والشروط التى تخص حكومة السلطان هى :

١ – يتعين على كل القبائل وجميع الشيوخ أن يعيشوا فى سلام مع السلطان ، ولا يهاجموا مدن الساحل ، ولا يتدخلوا فى نشاط حكومة السلطان .

٢ – يتمتع بالحرية جميع الذين يذهبون إلى عمان (الداخل) لأداء أعمال مشروعة أو لنشاط تجارى ولا تفرض أى قيود على التجارة ، وينعمون بالأمن .

٣ – لا يحق لشعب عمان الداخل أن يعطى حق اللجوء إلى كل من يرتكب عملا غير مقبول ، أو أى مجرم يهرب إليها .

٤ – ينظر فى مطالب التجار وغيرهم ضد شعب عمان الداخل ، ويتخذ بشأنها قرارات على أساس العدل ، ووفق قواعد الشريعة الإسلامية .

وقد تمت صياغة هذه المعاهدة بغموض متعمد ، كما اعترف بذلك الوسيط البريطانى ، مستر ونجت ، الذى قال : إن الفكرة من المعاهدة كانت دفع القبائل إلى الاعتقاد بأنها تملك استقلالها ، وفى الوقت نفسه فإن الحكومة البريطانية تستطيع أن تنفى أى اعتقاد لدى السلطان بأن هذه المعاهدة بشروطها المذكورة تنتقص شيئا من سيادته على شعب عمان كله وبلاده .

وعلى أى حال فإن المعاهدة قد أكدت أن للشعب العمانى فى داخلية البلاد حقا تاريخيا وعمليا يؤثر فى أسلوب حياتهم ، الذى يختلف فى بعض جوانبه عن الأسلوب المتبع بين سكان مسقط وبلاد الساحل بصفة عامة ، كما أكدت فى نفس الوقت أن الإمام ، باعتباره زعيم القبائل الداخلية ، له السلطة

المطلقة والنفوذ الشامل فيما يتعلق بمزاولة حقوقه ، ومع كل هذا فلم يكن له فى المعاهدة أى إشارة توحى بأن داخل عمان يعتبر دولة مستقلة .

* * *

لقد بدأ تاريخ البترول فى عمان عام ١٩٣٧ عندما حصلت شركة البترول الدولية من السلطان على حق امتياز للتنقيب .

وفى عام ١٩٥١ تشكلت شركة باسم « شركة تنمية بترول عمان » لكن عمليات التنقيب تعثرت بسبب الظروف الداخلية فى البلاد ، فقررت الشركة التوقف عن عمليات التنقيب بعد أن أنفقت عليها حوالى ١٢ مليون جنيه .

وفى عام ١٩٦١ قرر الشركاء الباقون ، وهم ، شل وجلبتكيان القيام بمحاولات جديدة ، وفى يوم ٢ نوفمبر سنة ١٩٦٤ أعلن عن اكتشاف البترول بكميات تجارية فى حقول فهود ونتيح وإيبل ، واستعدت الشركة لبدء عمليات التصدير التجارى عام ١٩٦٧ ، وتم تصدير البترول فى أغسطس عام ١٩٦٧ لأول مرة فى تاريخ عمان .

ومن أجل ضخ البترول تم مد خط أنابيب طوله ١٧٥ ميلا من حقول البترول ماراً بالجبال عبر وادى سمايل ، وينتهى عند رصيف ميناء الفحل . وعندما أعلن السلطان مشروعه للتنمية عام ١٩٦٨ نتيجة لعوائد البترول فإنه وعد بتوجيه اهتمام خاص للشعب المقيم فى المنطقة التى يوجد بها البترول ، ومع ذلك فلم يتم تنفيذ أى مشروع .

وعاشت عمان تحت قانون من قيود عديدة فرضها السلطان . ولم يكن العمانيون على الساحل ، خاصة الذين يتركزون فى مسقط ومطرح ، يملكون حرية مد نشاطهم التجارى إلى الداخل ، كما لم يكن العمانيون فى الداخل يستطيعون الحضور إلى المناطق الساحلية التجارة ، باستثناء شراء احتياجاته

محلاتهم الصغيرة وبيع بلحهم . وكانت القيود من العوامل العديدة التى أثارت سخط الشعب على حكم السلطان سعيد .

وكانت العلاقات مع الدول الأخرى قاصرة على بريطانيا والهند ، ولم تكن هنالك أى علاقات مع العالم العربى ،وكان لبريطانيا والهند قنصل عام فى عمان ، لكن عمان لم يكن لها أى ممثل فى الدولتين ، وكان العلاقات مع بريطانيا تحكمها معاهدة الصداقة والتجارة والملاحة الموقعة عام ١٩٥١ ، والتى تعتبر امتدادا للمعاهدة الأصلية لعام ١٧٩٨ ، أما العلاقات مع الهند فتحكمها المعاهدة الموقعة عام ١٩٥٣ ، واعتمد السلطان على تمثيل بريطانيا له فى العالم ، خاصة فى الأمم المتحدة .

أما البلاد الأخرى التى كان للسلطان علاقات دبلوماسية معها - ولكن لم يكن له ممثلون بها — فهى الولايات المتحدة الأمريكية — وألمانيا الاتحادية ، وفرنسا .

وكانت المعاهدة الأصلية مع الولايات المتحدة قد وقعت عام ١٨٣٣ ، من جانب السيد سعيد بن سلطان وروبرتس . وتجددت عام ١٩٥٨ ، لكن الأمريكيين لم يأتوا الى عمان خلال السلطان سعيد بن تيمور . واكتفوا بإيفاد ممثليهم فى عدن للقيام بزيارات من حين لآخر إلى مسقط ، ليرى ما إذا كان قد جد جديد .

وبالنسبة لألمانيا الاتحادية فقد حدث تبادل للخطابات عام ١٩٦٧ على أساس المعاهدة التجارية الموقعة بين عمان والألمان عام ١٨٧٧ ، ولكن لم تكن لها نتائج عملية فى السنوات اللاحقة .

وفيما يتعلق بفرنسا فالعلاقات معها تعود إلى أيام نابليون ، ولكن لم تجر أى اتصالات ذات أهمية خلال عهد السلطان سعيد بن تيمور . وفى الحقيقة فإن السلطان أوضح عن طريق ممثليه فى الأمم المتحدة أن المعاهدات

التى وقعها أسلافه غير ملزمة له ما لم يتم تجديدها ، وكان يريد بذلك أن يوضح أن معاهدة السيب أصبحت لاغية .

ولم تكن للسلطان أى ثقة بالأمم المتحدة ، وقد أعلن ذلك ، لكى يوضح - من خلال الممثل البريطانى - أن عمان دولة مستقلة ذات سيادة على كل أراضيها .

وكانت عمان قد انضمت إلى الأمم المتحدة لأول مرة عام ١٩٥٩ بعد أن طلب السلطان المساعدة ضد الإمام . وعندما أرسلت له بريطانيا قوات فإنها اتهمت بالعدوان ، وخلال السنوات التالية أقنعت الحكومة البريطانية السلطان ، بدعوة الأمم المتحدة لإرسال ممثل عنها إلى عمان ليرى بنفسه الموقف على الطبيعة . وفى ١١ ديسمبر ١٩٦٢ سلم المندوب البريطانى للسكرتير العام للأمم المتحدة دعوة من سلطان مسقط وعمان لإرسال ممثل شخصى لزيارة السلطنة فى العام الذى يليه لدراسة الأوضاع عن الموقف هناك على الطبيعة ، وقبل السكرتير العام الدعوة ،وعين مستر روبرت دى ريبينج ممثلا شخصيا عنه ، وغادر نيويورك فى ١٨ مايو ١٩٦٣ ، إلى عمان ، وعاد إلى نيويورك فى أول يوليو ١٩٦٣ .

وبعد تقديم تقرير دى ريبينج عن الموقف فى عمان إلى الأمم المتحدة ، شكلت لجنة مؤقتة لبحث مسألة تقرير المصير فى عمان . واستقبل السلطان رئيس اللجنة فى لندن ، ولكنه رفض السماح لأعضائها بزيارة عمان ، إذ لم يكن تقرير اللجنة يرضى السلطان .

ولذلك أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة فى ١٧ ديسمبر ١٩٦٥ قرارا يعترف بأن حق عمان الداخل فى تقرير المصير ، قد منع مزاولته من جانب بريطانيا .

وقد صدر القرار بأغلبية ٦١ صوتا ضد ١٨ صوتا وامتناع ٣٢ دولة

عن التصويت ، وتغيب ستة أعضاء . ولذلك كان هذا القرار نهاية لأى اهتمام من جانب السلطان بالأمم المتحدة .

وفى أوائل عام ١٩٥٧ ناقشت الجامعة العربية مشكلة استقلال عمان بعد أن عرضها مكتب الإمامة ،وقد أقام زعماؤه مطالبهم على أساس معاهدة السيب ، ولكن معاهدة السيب كما شرحنا آنفا قد صيغت بعبارات غامضة وبصورة مقصودة ؛ وحتى عندما عرضت المشكلة على الأمم المتحدة فإن بعض الدول التى امتنعت قد فعلت ذلك بسبب غموض بنود معاهدة السيب ، وذكر ممثل أورجواى — مثلا — أنه امتنع عن التصويت بسبب عدم الوضوح فيما يتعلق بالحقائق .

وقد تضمن تقرير ريبينج فقرة تصف موقف السلطان ، وقد تردد قبل أن يبدأ ريبينج رحلته إلى عمان لمقابلة السلطان ، أن مندوب شيلى سأل عن عدم إيفاد السلطان ممثلا عنه إلى الأمم المتحدة ليدافع عن قضيته . وعندما قابل ريبينج السلطان فى ٢٤ مايو ١٩٦٣ ، فإن هذا الموضوع أثير ، وعندما أجاب السلطان على السؤال فإنه بدأ أولا بتأكيد سيادته وأوضح بشكل محدد :

١ — أن بلاده ليست عضوا فى الأمم المتحدة :

٢ — أنه أبلغ السكرتير العام أن أية مناقشة من جانب الجمعية العامة لمشكلة عمان الداخلية تمثل تدخلا فى شئون بلاده .

٣ — أنه لا يرى سببا فى أن يذهب إلى المحكمة ويجلس فى مقعد المتهم .

لقد عاشت عمان فى عزلة كاملة خلال عهد السلطان سعيد ابن تيمور . ولم يكن ممكنا أن يتسامح الشعب إزاء ذلك الوضع ،

فبدأ تدبيرا تحركات ضده . وحصلت المعارضة الإمامية على تأييد من الدول العربية خاصة من العراق وسوريا والسعودية ومصر والكويت : وبعد ذلك قامت جبهة تحرير ظفار التى كانت فى مراحلها الأولى ، كحركة انفصالية تسعى من أجل استقلال ظفار وتحظى بتأييد الدول الشيوعية ، ثم أصبحت فى السنوات التالية تمثل خطرا كبيرا ليست لعمان فحسب ، بل أيضا لدول الخليج كلها . بعدان حصلت على تأييد من الدول الشيوعية

التمرد فى ظفار

ظهرت فكرة العمل من أجل استقلال الإقليم الجنوبى — ظفار — عن عمان عندما غادر بعض شباب ظفار بلدهم لتبحث عن عمل فى دول الخليج فى منتصف الخمسينات من القرن العشرين ، وهناك اتصل هؤلاء الشباب بعناصر عربية من دول أخرى ، فساعدوهم على تدبير خطة للتمرد .

ولم تكن هناك فى عمان سلطة مستقرة فى ذلك الوقت ، فالمنازعات القبلية أصبحت من المشاكل المتعذر حلها ، وقد اتسع العداء فى ظفار بين الكثيرين الذين يحتلون السهول ويقطنون فيها وبين الفاراس ، سكان القرى ، الذين يعيشون فى التلال إلى حد نشوب الحرب بينهما . وقد استغل شباب ظفار فى دول الخليج هذه الأوضاع ، وكثرت اتصالاتهم بعديد من العناصر التى تحمل أفكارا قومية عربية ، أو أفكار ماركسية ، واستقر رأيهم على تكوين تشكيل فرع ظفار لحركة القومية العربية .

وفى عام ١٩٦٢ تشكل هذا الفرع باسم الجمعية الخيرية الظفارية ، وقد زعم مؤسسوه ، أن الهدف من هذه الجمعية هو جمع الأموال لبناء المساجد ، ولمساعدة الفقراء من المواطنين .

ورغم أن أعضاء هذه الجمعية لم يكونوا متحدين أيديولوجيا ، فمنهم القوميون ، والماركسيون ، والاشتراكيون ، إلا أنهم جميعا كانوا متحدين فى معارضتهم لحكم السلطان ، وللدور بريطانيا فى شئون البلاد ، وقد قاموا وراء ستار الجمعية الخيرية ، بجمع الأموال ، وتجنيد أعضاء والقيام بالاتصالات السياسية بغية القيام بثورة مسلحة ضد حكم السلطان والنفوذ البريطانى فى منطقتهم .

وتكونت مجموعة أخرى، تسمى، منظمة جنود ظفار : من الظفاريين الذين يعملون فى فرق الحوالة العمانية ، وقد عملوا من أجل إقامة دولة مستقلة فى ظفار .

وكانت هناك أيضا منظمة الشباب العربى الظفارى ، التى تكونت ، فرعا لحركة القوميين العرب ، وهو الفرع الذى تولى قيادته شيخ قبيلة الكثيرى ، مسلم بن نوفل الذى كان يعمل من قبل ميكانيكيا فى جراج السلطان .

وفى ربيع ١٩٦٣ وزعت هذه المنظمة منشورات تحض على التمرد ، كما هاجمت عربات شركة البترول ،وقتلت أحد حراس السلطان . واعتقل قائد المجموعة لكنه تمكن من الهرب وتوجه إلى السعودية حيث اتصل بالإمام غالب . وذهب من هناك إلى العراق بمساعدة السعوديين ، حيث تلقى تدريبا على حرب العصابات وضم أعضاء آخرين لمجموعته .

وتشكلت جبهة تحرير ظفار عام ١٩٦٤ من تلك المجموعة ، ثم تعاونت معها بعد ذلك ثلاث مجموعات أخرى هى : الجمعية الخيرية الظفارية ، ومنظمة جنود ظفار ، والفرع المحلى لحركة القوميين العرب .

وتلقت الحركة مساعدات من حركة القوميين العرب ، والسعودية ومصر ، والعراق .

وفى إبريل ١٩٦٥ أصيبت الحركة بنكسة خطيرة عندما ألقى القبض على أربعة من أعضائها فى مدن مختلفة فى ظفار . وقد حد ذلك من قوتها. ونتيجة لذلك عقدت الحركة مؤتمرها الأول فى أول يونيو ١٩٦٥ فى جمرين ، فى الوادى الكبير بوسط ظفار ، لمناقشة وسائل النهوض بتنظيم الحركة ، ولذلك تم انتخاب لجنة تنفيذية من ١٨ عضوا ، أيدت مبادئ الكفاح المسلح وأصدرت بيانها الأول بهذا الصدد فى ٩ يونيو ١٩٦٥ .

وقد ندد البيان بنظام حكم السلطان سعيد بن تيمور ، وناشد جميع الظفاريين الانضواء إلى التمرد ، وأصدر المؤتمر بيانا سياسيا يتضمن التالى :

(ا) ان الطبقات الفقيرة والفلاحين ، والعمال ، والجنود ، والمثقفين الثوريين سوف يشكلون العمود الفقرى للمنظمة .

(ب) سوف يتم تدمير الوجود الاستعمارى بكافة صوره – العسكرية والاقتصادية والسياسية .

(ج) وسوف يتم تدمير نظام الحكم المأجور للسلطان سعيد بن تيمور .

وأصبح الهدف الرئيسى للحركة من ١٩٦٥ إلى ١٩٦٧ إقامة ودعم وجودها فى ظفار . وقامت بتقسيم المنطقة إلى ثلاثة أجزاء – شرق وغرب ووسط ، وجندت المتطوعين على أسس فردية . لكن عملياتها العسكرية كانت متقطعة ، واقتصرت على التخريب والقنص ، والكمائن لمواقع الحكومة ، على السهل ، خاصة فى طاقة ومرباط ، وعلى طول طريق صلالة – ثمريت . وكانت أبرز عملياتها فى تلك الفترة هى محاولة اغتيال السلطان فى ٢٦ أبريل ١٩٦٦ ، وقد قام بها جنود ظفاريون متعاطفون مع الحركة ، ولكن الحركة عادت إلى موقع الدفاع فى أوائل ١٩٦٧ ، فقد واجهت نقص التمويل بعد أن قطعت السعودية مساعدتها عنها .

وتباطأت عملياتها بسبب نقص السلاح . وأيضاً بسبب زيادة الضغط من قوات السلطان ، وتشتت قواتها

وفى ديسمبر ١٩٦٧ ، وبعد أن حصلت عدن على استقلالها – فإن جبهة تحرير ظفار تلقت دفعه هائلة من المساعدات من الدول الاشتراكية من خلال نظام الحكم فى عدن .

وعقدت جبهة تحرير ظفار مؤتمرها الثانى فى حمرين بوسط ظفار فى سبتمبر ١٩٦٨ ، بهدف توسيع نطاق عملياتها وتنسيق نشاطات جميع مجموعات التمرد المتفرقة فى المنطقة .

وقرر المؤتمر أن تتخذ الحركة استراتيجية « العنف الثورى المنظمة » ، ومبدأ « الاشتراكية العلمية » . وكان هذا القرار يعنى بداية محاولة تصعيد التمرد القبلى المحلى إلى حركة أيديولوجية وراءها تأييد جماهيرى فى أنحاء الخليج . وتضمن ذلك تغيير اسم الحركة من جبهة تحرير ظفار إلى الجبهة الشعبية لتحرير الخليج العربى المحتل .

ولم يرض قرار اتخاذ خط أكثر تطرفا بعض الزعماء الأصليين للجبهة مثل مسلم بن نوفلى الذى قاد منظمة الشباب العربى الظفارى ، ويوسف العلوى قائد الجمعية الخيرية الظفارية ، ولذلك تركوا الحركة . وقام المؤتمر الذى حضره ٦٥ عضوا ، بتشكيل قيادة عامة جديدة من ٢٥ عضوا ، منهم محمد أحمد الغسانى سكرتيرا لها . وبذلك حلت اللجنة القديمة المكونة من ١٨ عضوا ، والتى شكلت عام ١٩٦٥ ، واختير من أعضائها الثمانية عشر ثلاثة فقط كأعضاء فى اللجنة الجديدة .

وجدير بالذكر أنه رغم أن السيد سعيد بن تيمور قد نجح إلى حد ما فى تقويض النظام القبلى فى ظفار عن طريق مناورات عديدة ، إلا أن القبلية ظلت مشـــكلة ، بما صاحبها من نزاعات حول حقوق الأرض والمياه وغيرها بين سكان الجبال . ولذلك تركزت دعاية الجبهة الشعبية لتحرير الخليج العربى المحتل خلال تلك الفترة على الجهود لإنشاء نظام الملكية الجماعية للأرض ، واللجان الزراعية والمزارع النموذجية ، كما زعمت أنها حلت النزاعات القبلية عن طريق إنشاء لجنة لحل المشكلات الشعبية . لكن الحقيقة المرة أن كثيرين من رجال القبائل الذين رفضوا التعامل معها قد قتلوا . . . والأكثر مدعاة للسخرية ، أن مندوبى الجبهة كانوا يفرضون الطاعة عليهم عن طريق تطبيق عقوبات اقتصادية . وعلى سبيل المثال فإن الجبهة استولت على الماشية التى تعتبر الأساس الاقتصادى لسكان الجبال كى يخضع أصحابها . وقد دخلت الحركة مرحلتها الجديدة بالتخلى

عن وضعها الأصلى للثورة القبلية وانتهاج خط أكثر تطرفا للرفاق ، وبإقامة اتصالات مع منظمات سياسية دولية ، وبخاصة تلك المهتمة بمنطقة الخليج ، مثل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، وتدفقت المساعدات المالية والعسكرية على الجبهة من الصين وكوريا الشمالية ومن الاتحاد السوفيتى ، فضلا عن المساعدات التى كانت تحصل عليها من اليمن الجنوبى ، وبذلك أصبحت الحركة مرتبطة تماما بالسياسة الماركسية اللينينية التى ضاعفت بشكل أساسى من خطورة التمرد العسكرى فى ظفار .

وفى نفس الوقت كانت هناك عدة تنظيمات سياسية أخرى فى شمالى عمان . ومن أكثرها نشاطا ، وهى : الحركة الثورية الشعبية فى عمان والخليج العربى — الطليعة الثورية لطلبة عمان والخليج العربى — منظمة الجنود الوطنيين فى عمان . . وقد اندمجت كل تلك هذه المنظمات فى يونيو ١٩٧٠ وكونت جبهة جديدة سميت الجبهة الوطنية الديموقراطية لتحرير عمان والخليج العربى ، وقد أيدت العراق هذه الجبهة الجديدة ، التى زعمت بأنها جزء من حركة التحرير الوطنى العالمية فى آسيا وإفريقية وأمريكا اللاتينية ، . وقد تألف أعضاؤها من بين الشباب العمانى الذين تعلموا فى الخارج وتأثروا بالأيديولوجيات والأفكار القومية ، والمتعلمين الفنيين ، والمغتربين والمتعلمين العمانيين القدامى المعادين للسلطان ، وكانت هذه الجبهة مقسمة إلى مجموعتين رئيسيتين ، كل منها من ٣٠ عضواً تعمل إحداها فى الجبل الأخضر ، وتعمل الأخرى فى الشرقية ، ويقع الجبل الأخضر فى المنطقة الجبلية شمال غرب مسقط ، بينما تحتل الشرقية المنطقة الجبلية جنوب شرق مسقط ، وكانت هناك مجموعة تخريب صغيرة ، قاعدتها فى صور ، وقد تلقى أعضاء هـذه الجبهة تدريبا على حرب العصابات فى العراق واليمن الجنوبى والصين ، وفى مخيمات اللاجئين لمنظمة التحرير الفلسطينية ، قرب عمان بالأردن .

وقد شنت الجبهة الوطنية الديموقراطية لتحرير عمان والخليج العربي هجمات على مدن الداخل ، مثل إزكى ونزوى فى ١٢ يونيو ١٩٧٠ ؛ وفى إحدى الهجمات التى فشلت اعتقلت مجموعة من تسعة رجال ، أربعة منهم أعضاء فى اللجنة المركزية للجبهة ، ثم أعقبت ذلك اعتقالات أخرى وبخاصة بين الكوادر الرئيسية التى تم اعتقال أفرادها فى مطرح يوم ١٨ يوليو ١٩٧٠ ، وقد أدى هذا إلى إلحاق ضرر بالغ بعمليات الجبهة فى المدن وإلى فشلها فى فتح جبهة شمالية ، وهو ما نتجت عنه أزمة داخل الجبهة حول الاستراتيجية والتكتيكات ، وقد زاد هذا التفكك فى الجبهة سوءا فى ١٠ اكتوبر ، عندما بدأت ثورة مضادة فى الجزء الشرقى من الجبل احتجاجا على تصرفات معينة ، منها التعذيب والإعـــدام ، ومن ثم بدأت عمليات انشقاق عن الحركة . .

وفى منتصف عام ١٩٧٠ ، وهو العام الذى تدهورت فيه الأمور للثوار فى الشمال كان الوضع فى الجنوب يتحسن بشكل ملحوظ لصالح الجبهة الشعبية لتحرير الخليج العربى المحتل ، فقد سيطرت على الجبال ، بينما اقتصر وجود قوات السلطان على السهل الساحلى والمواقع المعزولة فى قمم الجبال .

وفى ٢٣ يوليو ١٩٧٠ خلف جلالة السلطان قابوس والده بعد انقلاب سلمى وقع فى قصره بصلالة ، وكان هذا التغيير البداية التاريخية لتركيز الحكومة طاقاتها بشكل فعال لمواجهة التمرد والعمل على تحقيق التنمية . .

لقد جرت محاولة عارضة لإحياء جبهة الشمال أثناء نزاع عمالى فى مسقط فى سبتمبر سنة ١٩٧١ ، وكان قائدها عضو معروف فى الجبهة الشعبية لتحرير الخليج العربى المحتل ، وهو محمد سالم المعشى ، الذى كان يدبر مؤامرات أخرى فى مسقط ومطرح ، وقد اكتشفت المؤامرة ، وقضى عليها فى الحال ، واعتقل قائدها . . أما الذين اشتركوا فى الاجتماع فلم تكن لديهم أدنى فكرة عما جرى تدبيره ، وكان البعض يصيح مطالبا بأجر أفضل وظروف عمل

أفضل ، وعندما حصلوا على تأكيد بأن مطالبهم ستكون موضع الدراسة فإنهم أنهوا اجتماعهم بالهتاف لحياة السلطان .

وفى يونيو ١٩٧٠ أثناء المؤتمر الثالث للجبهة الشعبية لتحرير الخليج العربى المحتل فى رخيوت ، غرب ظفار ، أصدرت الجبهة برنامجا من ٢٩ نقطة ، تنص على أن النضال الطويل والعنيد هو الطريق الوحيد لتحرير الخليج ولكنها لم تستبعد وسائل أخرى للنضال فى مناطق المدن والريف .

وفى ديسمبر ١٩٧١ ضمت الجبهة المؤسسة ، وهى الجبهة الشعبية لتحرير الخليج العربى المحتل حركة أخرى هى الجبهة الشعبية لتحرير عمان والخليج العربى ، ونشأت جبهة جديدة تسمى الجبهة الشعبية لتحرير عمان والخليج العربى .

وعند هذه النقطة كان النضال السياسى يسير متعثرا فكان لابد من نصر عسكرى لرفع المعنويات .

وفى ١٩ يوليو ١٩٧٢ حشدت هذه الجبهة الجديدة مائة رجل لشن هجوم على مرباط فى الطرف الشرقى لسهل ظفار — الساحلى وكان هذا الهجوم كارثة للتمردين الذين لقنوا درسا رادعا ، كان فى انتظارهم ، ففقدوا سبعين قتيلا . وقد أثر ذلك الفشل على الحملة العسكرية ، لأن المتمردين أرغموا على التقهقر إلى الجبال والانسحاب نحو حدود اليمن الجنوبية ، وهو ما جعل هذه الجبهة تصبح فى موقف الدفاع .

وأرغمت أحداث مرباط الجبهة على محاولة تخفيف الضغط فى الجنوب بإنحاء الجبهة الشمالية .

وفى نوفمبر ١٩٧٢ شاهد أحد المنشقين عضوا كبيرا من الجبهة وهو محمد ابن طالب فى مطرح فوضعت لذلك قوات الأمن فى حالة تأهب ، وبعد ٦ أسابيع من المراقبة شنت الحكومة عملية شاملة فى ٢٣ ديسمبر ١٩٧٢ القضاء على شبكة التخريب . وقد تمت العملية فى خمسة أيام ، تم خلالها

اعتقال ثمانين شخصا ، منهم ثمانى نساء ، ومن بين الأسلحة المخبأة التى عثر عليها بنادق أوتوماتيكية (كلاشينكوف) و بنادق نصف أوتوماتيكية ، ومدافع مورتار ٦٠ م.م وبنادق و مسدسات و ألغام مضادة للدبابات ، وكانت هذه الأسلحة قد شحنت عن طريق صور التى كانت نقطة تقليدية لتهريب الأسلحة ، وفى نفس الوقت الذى تمت فيه تلك الاعتقالات جرت عملية مشابهة فى الإمارات العربية المتحدة ، حيث كان يجرى مراقبة نشاط الجبهة الشعبية لتحرير الخليج العربى المحتمل ، ونجحت العمليتان فى كبح محاولة ثورة مسلحة فى الشمال ، وأقيمت فى يونيو ١٩٧٣ محاكمة ستة وسبعين شخصا ، منهم الذين اعتقلوا خـلال عملية الخمسة أيام التى بدأت فى ٢٣ ديسمبر ١٩٧٢ ، وقد حكم على أحد عشر منهم بالإعدام ، وعلى الآخرين بالسجن لمدد تتراوح ما بين ستة شهور ومدى الحياة . . وكانت إحـدى السيدات التى حـكم عليها بالسجن ستة شهور حاملا ، ولذلك أطلق سراحها بعد ثلاثة شهور . . . وبعد أن ضربت الجبهة للمرة الثانية فى الشمال فإنها كانت أيضا فى موقف دفاعى فى الإقليم الجنوبى ظفار .

وفى عام ١٩٧٤ أصيب المتمردون بضعف خطير بسبب الانشقاقات فى صفوفهم وبسبب تواجد قوات السلطان المسلحة وقيام مشروعات التنمية الحكومية فى المناطق الجنوبية .

وفى يناير ١٩٧٤ عقدت الجبهة مؤتمرها الرابع الطارىء ولكنها فشلت فى الاتفـاق على سياسة عاجلة وقامت فى الصيف بعمل إعادة تقييم لاستراتيجيتها ، وفى ٩ أغسطس أعلن صوت عمان من مقره فى عدن ، أن الجبهة أعادت تغيير اسمها إلى الجبهة الشعبية لتحرير عمان ، وقد حولت الاستراتيجية الجـديدة التركيز من النضال العسـكرى إلى النضـال السياسى ، وأوضحت أن أداتها الرئيسية ستكون الجبهة القومية المتحدة ، وأن الثورة فى عمان يجب أن تكون ثورة مسلحة ، وأن تستفيد من العنف الثورى للجماهير للقضاء على عنف الاستعماريين الغزاة وعملائهم المحليين ، وذكرت أن نضال الجماهير العمانية يجب أن يستخدم

كل وسائل النضال فى نفس الوقت ، وأن صور النضال الأخرى يمكن تطبيقها فى إطار النضال المسلح .

وقد جاء هذا التغيير عقب تقرير متشائم قدم فى المؤتمر الرابع حول المعدل الكبير للانشقاقات من الجبهة والانضمام إلى جانب الحكومة ونقص الإمدادات وسوء المواصلات . . وأصر مندوبو الجبهة من البحرين وقطر والكويت بتغيير حاسم فى سياستها مع التركيز على جهود تجنيد الشباب المثقف الذين لم تجذبهم الخدمة العسكرية . . وقد تردد أن فكرة تغيير اسم الجبهة جاء بناء على نصيحة بعض الحكومات ، على أمل أن استبعاد دول الخليج سيشجع دول المنطقة على الاعتراف بها وبذلك ينحصر التهديد فى عمان وحدها . . وقد أثمر هذا العمل لبعض الوقت فى دول مالت إلى الاعتقاد بأن التهديد الشيوعى هو مشكلة عمانية بحتة ، وغضت الطرف عن حقيقة أنه إذا سقطت عمان ضحية للشيوعيين فلن تبقى هذه الدول آمنة بعد ذلك . . ومع ذلك فانها سرعان ما أيقنت هذا الخطر وبدأت التعاون مع عمان أو على الأقل فى تقديم مساعدات أدبية لها .

ولقد أجبر الأعضاء الظفاريون فى اللجنة المركزية على ضررة مواصلة النضال المسلح وأدى الخلاف إلى ترك الجبهة بدون قيادة فعالة فى الفترة بين يناير وأغسطس ١٩٧٤ ، وكذلك فان تدهور الظروف الاقتصادية فى اليمن الجنوبية قد أرغمها على تركيز النظر فى شئونها عن إشعال الثورة فى الدول المجاورة .

على أن النتائج العملية لمداولات ١٩٧٤ استوجبت أن يكون للقيادة الإقليميــــة للجبهة مزيد من السلطة وحرية التصرف ، وكان هــذا يعنى أن الوحدات العسكرية التى كانت ما تزال موجودة فى ظفار يجب أن تترك لها حرية التصرف حسب ما تراه . . وقد علم أن العراق عرضت أن تتولى تنظيم النشاطات التخريبية بدلا من اليمن الجنوبى فى الخليج ،

ويعود هذا الموقف إلى التنافس بين العراق وبين إيران وليس لقدرات العراق على إشعال ورعاية ثورة دائمة فى المنطقة .

وبعد وقت قصير من إعلان الاستراتيجية الجديدة أصبحت شمال عمان للمرة الثالثة خلال أربع سنوات ميدانا للتخريب والثورة .

ففى ٢٩ أكتوبر ١٩٧٤ أوقفت سيارة لاندروفر عند محطة تفتيش عسكرية على الطريق قرب الرستاق ، فقام قائد المجموعة التى تستقل السيارة بفتح النيران ، وقتل أحد الجنود وجرى تبادل لإطلاق النيران قتل خلاله قائد المجموعة زاهر على مطر الميهى (المعروف بأسم أحمد على) وكان عضواً فى اللجنة المركزية للجبهة ، ووجد الأعضاء الأربعة الآخرون فى السيارة ، ومنهم عضو آخر فى اللجنة المركزية ، أنفسهم فى مأزق إذ كانوا يحملون كمية كبيرة من النقود والأسلحة والمتفجرات ، وكان واضحا أن المجموعة تنوى القيام بعض الاغتيالات ، وقد تلقت المجموعة تدريبها فى مخيم للاجئين قرب بيروت تابع للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، وعقب هذا الحادث اعتقل عدد من الأشخاص بعضهم يشغل مراكز مسئولة فى مكاتب الحكومة والبوليس ووزارة الخارجية والجمارك والأعلام ، وكان نجاحهم فى التسلل إلى الوظائف الحكومية مصدر إزعاج .

وإذا كان مؤتمر حمرين يمثل بداية النضال التخريبى المسلح للمتمردين فإن تولى السلطان قابوس للحكم يمثل بداية سقوطهم ، فمن البداية كان هدف قوات السلطان المسلحة هو قطع خطوط الامدادات عن المتمردين وتعقبهم والقضاء عليهم فى ... وحتى عام ١٩٧٠ قبل أن يخلف السلطان قابوس والده كانت محاولات قوات السلطان المسلحة تجاه نشاط الجبهة متعثرة ، وكان سهل صلالة الساحلى هو المنطقة الوحيدة الخاضعة للحكومة ، بينما كانت المواقع الموجودة فى السهل عرضة للهجمات التى تقوم بها الجبهة من مناطق مرتفعة مستخدمة مدافع الهاون ونيران الصواريخ . غير أن الوضع أخذ يتحول تدريجيا إلى صالح قوات السلطان المسلحة بعد تولى السلطان قابوس الحكم فى يوليو

١٩٧٠ ، وهو ما أعطى التحرك السياسى قوة فى مواجهة التمرد ، وتضاءلت عملية قصف السهل إزاء تقوية المواقع الدفاعية لقوات السلطان المسلحة وهو مادفع المتمردين نحو الجبل .

وقد سارت الحرب حتى عام ١٩٧٢ حسب الدورات الموسمية ففى فصول الرياح الموسمية تحقق الجبهة تقدما على قوات السلطان المسلحة عندما تكون الجبال مغطاة بالضباب ويصبح من الصعب على قوات الحكومة تعقب المتمردين . . بينما تستطيع قوات السلطان المسلحة التى تعمل أساسا من خلال الغارات الجوية أن ترغم المتمردين على التزام الدفاع أثناء المواسم الجافة .. وبالنسبة لقوات السلطان المسلحة فإن الإحتلال الموسمى للأرض كان مسألة تعتمد على الإمدادات التى كانت غير كافية حتى عام ١٩٧٢ ، ولم يكن الموقف مشجعا لكثير من أهالى الجبال بسبب استمرار أعمال الإرهاب التى تقوم بها الجبهة . وكانت أقوى نقطة فى سمبا وتعرف رسميا بأسم سرفيت وقد أقيمت فى إبريل – مايو ١٩٧٢ على الحدود بين عمان وبين اليمن الجنوبى ، وقد تلقت ١٢ ألف طلقة خلال عام ١٩٧٢ – ١٩٧٣ من المدفعية من القوات النظامية لليمن الجنوبية ولكن قوات السلطان المسلحة لم يسمح لها بإطلاق النار إلى داخل اليمن الجنوبية ، استناداً إلى أن سياسة السلطان تقضى بعدم التدخل فى الشئون الداخلية للآخرين والعمل على إقامة علاقات حسن جوار معها .

وقد تغير الموقف عام ١٩٧٤ فقد أصبح التفوق غالباً لقوات السلطان المسلحة ، ولم تقع هجمات منظمة بإستثناء القصف الموسمى طويل المدى لعدة شهور من جانب الجبهة . . وكانت قوات السلطان المسلحة قد نقلت المعركة للعدو فى صيف ١٩٧٣ وبقيت فى الجبل خلال فترة الأمطار الموسمية وأقيم حاجز كثيف من الأسلاك الشائكة فيما بين أواخر ١٩٧٣ ويونيو ١٩٧٤ وطوله ٢٥ ميلا ويمتد من مغسيل فى الغرب إلى جزيرة صلالة ، وكان الخط ملغما .. وقد أدت تلك العملية إلى وقف الإمدادات التى تأتى بها الجمال من اليمن الجنوبى إلى وحدات الجبهة شرق الخط ، وقبل إقامة الخط الحاجز كان

ما بين ٦٠ ، ٧٠ جملا تأتى من اليمن الجنوبية محملة بالأسلحة للمتمردين ولكن منذ أواخر ١٩٧٣ لم تستطع أى قافلة جمال الوصول إلى هنالك" :

وبذلك أصبح المتمردون فى القطاعات الوسطى والشرقية معزولين ومحرومين من الإمدادات .

وقد تم اختيار موقع الخط بعناية : فهو يقع عندالحافة الغربية لإحدى مراعى الماشية وهو أكثر سمكا فى الجنوب عنه فى الشمال ، لأن طرق الإمدادات متعددة فى الجنوب . وبذلك اتجهت الجبهة بطرق امداداتها شمالا عبر مناطق مفتوحة واقل تقبلا لها .

ومن قواعد هذا الخط أخذت قوات السلطات المسلحة تقوم بدوريات يومية وبنصب كمائن ليلية ، ونادراً ما كانت الدوريات تبعد أكثر من ميل ونصف ميل عن قواعدها ، ولم تكن هناك هجمات قوية للجبهة فى المنطقة لمدة سنتين .

وكلما اكتشفت قوات السلطان المسلحة ثغرة فى الخط فإنها تتعقب الذين قاموا بها باستخدام فرق مكافحة حرب العصابات والخلاصة أن الخط قد ساعد على تقليص طرق الإمدادات من الناحية الشرقية والغربية وأدى الى إنهاك قوات الجبهة فى المنطقتين الوسطى والشرقية ، وتحرك المواقع الدفاعية نحو حدود اليمن الجنوبية .

ويعتبر الجبل الشرقى موقعا هاما لعمان بسبب كثافة السكن ووفرة الماشية ، ولقدكان هناك تركيز للعناصر المقاتلة من الجبهة فى تلك المنطقة ، وبسبب الظروف الحرجة للمتمردين فى القطاع الشرقى فقد اخذت الهجمات العسكرية لقوات السلطان المسلحة تنحو نحو تحقيق سياسة ذات شقين ، أحدهما للتهدئة ، والثانى للتنمية .

وقد ترتب على اتباع الاستراتيجية الهجومية لقوات السلطان المسلحة وإنشاء ذلك الخط تحقيق إنجاز عسكرى هام ، وهو فتح الطريق الأوسط فى شهر ديسمبر سنة ١٩٧٣ ، وهو الطريق الممتد من صلالة إلى ثمريت

فى الوسط ، وهو الطريق البرى الوحيد بين مسقط وصلالة، وكانت الجبهة قد ظلت لعدة سنوات تسيطر على هذا الطريق من خلال الجبل ، حتى إنه كان يوصف بالخط الأحمر للجبهة .

وتلبية لطلب من جلالة السلطان قابوس أرسلت الحكومة الإيرانية قوة تتكون من ١٢٠٠ رجل ظلت هناك حتى نوفمبر / ديسمبر ١٩٧٣ . وفى ليلة ١٩ ديسمبر ١٩٧٣ احتلت هذه القوة الطريق من الشمال والجنوب ، ولم تحدث مقاومة تذكر ، باستثناء طلقات متقطعة وعمليات قناصة ، وظل الإيرانيون يرابطون فى خمسة عشر موقعا على امتداد الطريق حتى وصول قوات السلطان ، وقد غادر الجيش الإيرانى عمان فى ١٠ أكتوبر ١٩٧٤ ، ولكن حل محله غيره فى نهاية العام .

وقد أحـــدث وصول القوات الإيرانية إلى عمان بعض الاستياء وعدم الارتياح بين بعض الدول الشقيقة التى اتهمت حكومة عمان باستخدام دول أجنبية لسحق أخوة عرب . كما اتهمت إيران بالتدخل فى الشئون الداخلية لدولة مجاورة . ولكن عمان وإيران كانت لهما أسبابهما المقبولة والمشروعة للقيام بهذا العمل المشترك ، لوقف التسلل الشيوعى إلى المنطقة .

وقد شرحت حكومة عمان وجهة نظرها لجميع الدول الشقيقة وأشارت إلى خطر التسلل الشيوعى ليس على عمان وحدها ، ولكن على منطقة الخليج بأكملها . وبذلك أكدت الحاجة لعمل مشترك لوقف ذلك الخطر . لكن النداء لقى آذانا صماء من بعض الدول التى اعتبرت الموضوع مشكلة عمانية محضة ، وقد تركت لعمان وحدها مواجهته متجاهلة ما قد يحدث لها إذا ما سيطرت الشيوعية على المنطقة .

ولقد اعتبرت إيران دولة أجنبية فى نظر العرب ، رغم أنها دولة خليجية فضلا عن أنها مسلمة . لكن عمان التى لم تتجاهل هذه الحقيقة ،

ظلبت مساعدة إيران باعتبارها دولة إسلامية قوية ، وجارة لها وتواجه خطراً مماثلا .

وفى أول يناير ١٩٧٥ قامت القوات الإيرانية بهجوم على رخيوت تؤيدها قوات السلطان المسلحة واشتبكت مع مائتين من المقاتين الأقوياء التابعين للجبهة غرب المدينة . ولحقت الجانبين خسائر فادحة ولكن نتيجة المعركة كانت السيطرة الكاملة على الطريق الأوسط وقد رابطت على الخط وحدات من الجندرمة العمانية ، بمعونة إضافية من فرق المتطوعين .

وبذلك فإن التدخل الإيرانى قد أنقذ منطقة الخليج كلها من السقوط فى أيدى الشيوعية . ولاشك أن فتح الطريق الأوسط قد رفع من الروح المعنوية لأهالى صلالة ،وكانت له آثار هامة على فتح الجبل ومساعدته الإدارة المدنية .

ونتيجة لتلك العمليات عزلت وحدات الجبهة فى وسط وشرق ظفار ، وتحول دور قوات السلطان المسلحة من مطاردة العدو وتدميره إلى التنمية المدنية .

وقد أدت هذه السياسة إلى نتائج حاسمة فى الوسط والشرق ، وأصبح معدل الانشقاق عن الجبهة والإستسلام للحكومة من أفرادها عاليا ، وخلال الفترة من أكتوبر ١٩٧٠ إلى نهاية ١٩٧٤ وصل عدد الذين استسلموا لقوات الحكومة إلى ألف شخص ، والذين قتلوا إلى ٤٣٣ شخصا .

وعندما تحركت الحكومة إلى المناطق التى كانت تخضع من قبل للجبهة ، فان التركيز زاد على التهدئة على يد فرق عمل مدنية . وفى المناطق التى تتوافر بها آبار المياه ، أقامت قوات السلطان المسلحة قواعد ومراكز لها . وشملت مثل هذه المراكز : مدرسة وعيادة ، كل ذلك داخل حاجز دفاعى تحرسه فرق المتطوعين . وكانت هذه المراكز هامة لأهالى الجبل ، لأنها كانت تمثل الوجود الفعلى للحكومة فى مناطق

لم يكن لها بها وجود فى الماضى . وفى نوفمبر ١٩٧٤ تم حفر أحد عشر بئراً ،

ومع تقدم عملية تهدئة المنطقة ، زادت أهمية التنمية الاقتصادية للجبل ، وكان ذلك يعنى تحسين وزيادة سلالة الماشية ، والأرض المزروعة بالحشائش لرعى الحيوانات ، وبدأت إدارة تنمية ظفار باستخدام سلالة من الأبقار وأنواع من المحاصيل بهدف ربط اقتصاد الجبل باقتصاد سهل صلالة ، وكانت الخطة طويلة الأجل تستهدف جعل ظفار مصدرا رئيسيا للأبقار .

وكان من الممكن تنفيذ خطة التهدئة بسهولة من خلال تعاون قوات السلطان المسلحة مع قوات مكافحة حرب العصابات المعروفة باسم الفرق القومية .

وقد تكونت هذه القوات من المتمردين السابقين ، وعملت كنوع من البوليس القبلى . وكانت وحداتها تعمل فى المناطق القبلية ، وكانت مسئولة عن حماية تلك المناطق من نشاط المتمردين . ويتراوح عدد كل فرقة منهم ما بين خمسين شخصا فى المناطق التى تم تطهيرها ، ومائة وخمسين فى المناطق التى ما زال يوجد بها متمردون ، وقد أجادوا أداء عملهم وأصبح معروفا عنهم ، أنهم الوسيلة الوحيدة الممكنة لحفظ القانون والنظام فى الجبل .

وبعد أن تم توفير الأمن فى طريق صلالة — ثمريت أصبح الهدف الرئيسى لقوات السلطان المسلحة هو استئصال جيوب المقاومة الباقية فى القطاعات الوسطى والشرقية من الجبل . وكانت المشكلة العاجلة هى حشد أقصى قدر من القوة التى تستخدم المركبات ، طالما كان المتمردون يتفادون الدخول فى معارك مع قوات حكومية متقدمة عليهم ،

وقد خف العبء عن بعض وحدات قوات السلطان المسلحة ، عندما

وصلت قوات أردنية فى ربيع ١٩٧٥ لتولى مهمة تأمين طريق صلالة — ثمريت .

ثم بدأت فترة وجهت خلالها قوات السلطان المسلحة والفرق ضربات قاتلة ضد قوات التمرد خاصة فى المناطق التى طالما وصفوها « بالمحمدة » ويعد أبرزها تلك العملية التى نفذت فى منطقة وادى الشوك ، والتى تم خلالها اكتساح مقر القيادة الرئيسى للشيوعيين المعروف باسم « كتيبة ٩ يونيو » والاستيلاء على كميات كبيرة من الأسلحة والذخيرة والمعدات . ولأول مرة ، استخدمت القوات العمانية طائرات الهليكوبتر بقوة متزايدة لنقل الرجال بسرعة إلى العمليات .

واستمر العمل بهذا الأسلوب منذ بداية العام وحتى حلول فصل الأمطار الموسمية ، الذى يحد من النشاط الجوى وغيره من النشاطات فى منطقة الجبل . ولم تتح للعدو أدنى فرصة للراحة ، وظلت إمداداتهم معرضة للضرب والإستيلاء عليها . ومن الجدير بالذكر أنه خلال العملية التى جرت فى وادى الشوك كانت تلتقط رسائل إذاعية من راديو المتمردين تشكو من الجوع قبل أى شىء آخر ، وهكذا تضاءلت مساحات الأرض التى يقف عليها المتمردون فى المناطق الشرقية والوسطى ، سواء من حيث العدد أو الفاعلية .

وفى ١٥ أكتوبر ١٩٧٥ تحركت وحدات الهجوم التابعة لقوات السلطان المسلحة من صرفيت زاحفة جنوبا إلى الساحل ، وفى اليوم الثانى وصلت إليها التعزيزات من وحدات أخرى ، وقد نجحت من خلال سيرها ليلا فى السيطرة على جميع طرق إمدادات العدو فى المنطقة .

وفى ١٧ أكتوبر تم تعزيز تلك الوحدات بالمدفعية فى صرفيت وقامت بمهاجمة موقع العدو فى حوف باليمن الجنوبية ، ودمرت مواقعه العسكرية ومدفعيته .. ولجأ المتمردون عندئذ إلى قرية ضلكوت التى كانت آخر مكان يلجأون إليه قبل إنزال الهزيمة الكاملة بهم .

وفى ٢٩ نوفمبر ١٩٧٥ بدأت عمليات التطهير ضد المتمردين على الجانب الغربى .. للجبل . واستولت قوات الفرق الوطنية على كميات كبيرة من الأسلحة والذخيرة .. من المتمردين خلال تلك العمليات التى حققت نجاحا كاملا .

ثم جاء اليوم الكبير ، ففى الساعة التاسعة والدقيقة السادسة والثلاثين من صباح يوم الإثنين أول ديسمبر ١٩٧٥ .. وبعد أن تم اكتساح الإرهابيين الماركسيين تماما .. من غربى ظفار ، وجهت قوات السلطان المسلحة ضربة نهائية كاسحة لآخر معاقل العدو فى منطقة ضلكوت الساحلية ، وبذلك جاءت نهاية آخر موقع حصين للمتمردين ، وأصدرت القيادة العامة لقوات السلطان المسلحة بيانا عسكريا يعلن :

« حققت قوات السلطان المسلحة والقوات غير النظامية انتصارا حاسما ، وقضت على عصابة الماركسيين الإرهابيين فى المنطقة الغربية من ظفار .. وهى الآن تفرض سيطرتها الكاملة على كل شبر من الأرض فى هذه المنطقة المتاخمة لحدودنا مع اليمن الجنوبية .. وإن قوات السلطان المسلحة التى رفعت أعلام النصر فوق جبال ظفار قد أبلغت الأنباء السعيدة بنصرها إلى قائدها الأعلى جلالة السلطان قابوس .. وتنهز هذه الفرصة لتجديد عهدها لجلالة السلطان قابوس بالدفاع عن الأرض العمانية ، وحماية المكاسب التى حققها الشعب العمانى تحت قيادته الحكيمة .. وإن قوات السلطان المسلحة والفرق القومية تهنىء الشعب العمانى بأكمله بهذا النصر الحاسم .. الذى كان يتطلع إليه منذ وقت طويل ، والذى ناضل من أجله بكل قواته فى مواجهة الوسائل الارهابية والعصابات الماركسية التى تؤيدها الحركة الشيوعية العالمية ، وإن قوات السلطان المسلحة والفرق القومية تؤمن بأن هذا النصر سوف يدفع عجلة التنمية إلى الأمام ، وأن آثاره سوف تنعكس بوضوح على مختلف مجالات التنمية والتقدم .. التى تشهدها السلطنة فى عصر ازدهارها الحاضر .. وسوف تظل قواتنا المسلحة الباسلة الدرع

الذى يحمى بلادنا ، ويردع أى محاولة من الجيوب الشيوعية ضد بلادنا الحبيبة » :

وقد سئل جلالة السلطان قابوس من مراسلى صحيفتى صنداى تايمز الانجليزية ، وواشنطن بوست الامريكية فى ١٦ يناير ١٩٧٦ ، عما إذا كان يرى أن هناك احتمالا فى عودة المحاولات الشيوعية للتسلل من جديد إلى عمان .

فأجاب « بأنه لايوجد أى احتمال من ذلك على الإطلاق . . فالذين انضموا إلى المتمردين يدركون الآن أن السلطنة توفر كل فرصة للتقدم والرخاء للشعب العمانى وأنهم جميعاً قد عادوا بالتالى ليقوموا بدورهم فى بناء بلادهم رافضين محاولات النفوذ الأجنبى لدفعهم لمواصلة إثارة المتاعب » .

وفيما يتعلق ببقاء قوات إيرانية بعد أن انتهت الحرب قال جلالته « إنهم باقون بسبب الموقف العدائى من اليمن الجنوبية ، وأوضح جلالته للصحفيين بأن هناك عددا كبيرا من الكوبيين والألمان الشرقيين فى القوات المسلحة لليمن الجنوبية وقوات الأمن فيها » .

وفى يوم الخميس ١١ ديسمبر سنة ١٩٧٥ زحف موكب ضخم يضم مائة ألف شخص من روى لتحية جلالة السلطان قابوس فى استاد القرم وألقى جلالته خطابا فى جموع الحاضرين الذين كانوا يهتفون ويرقصون خلال مسيرتهم ويهتفون « عاش السلطان ، وعاشت قوات السلطان المسلحة» احتفالا بالنصر الذى حققته قوات السلطان المسلحة فى المنطقة الجنوبية وطهرت به البلاد من المتسللين الشيوعيين :

وقد خلقت هذه المسيرة مشهداً لم تره عمان ، لقد كان موكبا جماهيريا اشترك فيه الجميع من كل أبناء الشعب ، وقد أظهر فيه الشعب فرحته بنصر قوات السلطان المسلحة على العدو فى أول ديسمبر ١٩٧٥ وبعد ذلك تم إعلان يوم ١١ ديسمبر رسميا كيوم للجيش .

وساطة الدول الشقيقة

جرت محاولات غير ناجحة للتوفيق بين عمان واليمن الجنوبية وكان جلالة السلطان قابوس يرحب دائماً بأية مبادرة من أى وسيط لتسوية الخلاف مع اليمن الجنوبية انطلاقا من سياسة حكومته الخاصة بإقامة علاقات أخوية طيبة مع الدول المجاورة، وبعدم التدخل فى الشئون الداخلية لأى دولة.

وفى عام ١٩٧٣ قامت الكويت بمحاولة لإقناع اليمن الجنوبية بالتخلى عن تأييدها للجبهة الشعبية لتحرير عمان ولكن المفاوضات تعثرت . . .
وفى مايو ١٩٧٤ زار وفد من أحد عشر عضوا من الجامعة العربية عمان. وكان هذا الوفد يضم ممثلين من الجزائر وتونس وسوريا والكويت وليبيا ومصر، ويرأسه الأمين العام للجامعة العربية.. ولم يسمح للوفد بزيارة عدن.. وقبل ذلك بعدة أسابيع بدأ أعضاء الجبهة الشعبية لتحرير عمان حملة دعاية، حيث أوفدوا وفداً يضم محمد عبد الله حسين (اللجنة المركزية) وعيسى عبد الله (العلاقات الخارجية) لزيارة بغداد ودمشق والقاهرة والجامعة العربية، كما قابل الوفد قادة الحزب الشيوعى اللبنانى ومنظمة التحرير الفلسطينية فى بيروت.

وأخذت المملكة العربية السعودية المبادرة فى السبعينات لإقناع اليمن الجنوبية بوقف تأييدها للجبهة . . . وبدا أن الأمور تتجه اتجاها طيبا، ولكن المراقبين فوجئوا برئيس وفد اليمن الجنوبية فى مؤتمر قمة عدم الانحياز فى كولومبو، فى أغسطس ١٩٧٦ يعلن بوضوح، أن حكومته لايمكن تحت أى ظرف من الظروف أن تكون على وفاق مع عمان، وأنها ستواصل تأييد أى حركة تعمل ضد حكومة عمان، ثم كرر نفس

الشخص هذا التصريح فى الجمعية العامة للأمم المتحدة فى دورتها الحادية والثلاثين فى نيويورك ، وفى نوفمبر عام ١٩٧٦ أعلن وزير خارجية اليمن الجنوبية فى باريس أن علاقات حكومته مع السعودية ليست لها علاقة بموقفها ضد عمان ، ثم أعيد تأكيد موقف عدن المعادى لعمان بعد ذلك فى كل الاجتماعات الدولية والاقليمية . ومع ذلك فقد فتحت عمان أبوابها وما زال شعبها يأمل ، مثلما كان دائما ، فى أن تغير اليمن الجنوبية مسلكها وليس هناك ما يمنع من أن تعيش فى علاقات أخوة وحسن جوار مع عمان .

لكن ذلك ما زال يبدو حلما بعيداً جداً مادامت اليمن الجنوبية مستمره فى ولائها للنفوذ الأجنبى الذى يملى عليها سياسته الحمراء .

— ١٨ —

عهد السلطان قابوس

انقشع الليل الطويل عن عمان فى ٢٣ يوليو ١٩٧٠ عندما أشرق الفجر الذى انتظره الشعب طويلا ليفسح الطريق للشمس المشرقة معلنة تصميمها الأكيد على أن تشرق فوق عمان إلى الأبد .

وخلال ذلك الليل الطويل عاش شعب عمان داخل بلاده وخارجها يتذوق مرارة الحياة التى كانت لا تفرق بين المتعلم وغير المتعلم ، ولا بين الشاب والكهل — أو بين الرجل والمرأة — لكنها أصابت الجميع أياً كانوا ، وخلال ذلك الليل الطويل تعود العمانى أن يعتبر حقائق الحياة خيالات والخيالات حقائق . . حتى دفنت الحقائق فى عقله وأصبح يعتقدها مجرد أحلام وسراب لا يمكن الوصول إليه . .

وفى الحقيقة فإن العمانى قد عرف الكثير وفهم الفرق بين النظرية والحقيقة . . وبين الطيب والخبيث ، وبين الأقوال والأفعال . ولقد قيل الكثير عن شعب عمان منذ قديم الأزل ، ولكن الكثير سوف يقال عنهم بعد أن تولى السلطان قابوس الحكم . ولقد كان السلطان قابوس نفسه ضحية لعزلة طويلة . . وعمل من أجل ذلك اليوم الذى يتولى فيه مسئولية أمور البلاد . . فلم يكن يستطيع أن يتحمل طويلا استمرار الحياة البائسة لشعبه ، ولذلك وقف فى يوم ٢٣ يونيو ١٩٧٠ وأعلن لأمته ، أنه جاء لإنقاذهم ، وليضعهم على قدم المساواة مع شعوب الدول الأخرى المتقدمة فى أقرب وقت ممكن . . وشعر شعبه بارتياح عظيم . وكان أول ما فعله جلالة السلطان هو تغيير اسم للبلاد من سلطنة مسقط وعمان إلى سلطنة عمان . . ورغم ما يبدو من بساطة فى هذا التغيير إلا أن له معنى سياسياً عميقا ، ولم تعد البلاد مقسمة بين عمان الداخل والساحل . . أو إلى شمال وجنوب . .

وفى أعقاب تلك الخطوة عمل جلالة السلطان قابوس على الوفاء بوعده .. وبدأ فعلا فى تنفيذ ماوعد به . وجرى تغيير مذهل وبدأ شبح الماضى يتلاشى ، وبدأت البلاد تزحف إلى الأمام بحماس ، وإصرار مدهش ، وفى مقدور أى إنسان أن يشاهد التقدم الذى حدث فى كل مجالات البلاد .

ولم يكن ذلك بالعمل السهل وبخاصة وأن شبح الشيوعية المخيف كان مايزال يركز نظراته على البلاد .

ورغم أن جلالة السلطان قابوس قد آلت إليه تركة مثقلة من المتاعب والمشاكل لكنها أضافت مذاقاً إلى تصميمه القوى على رفع شأن بلاده وشعبه من زوايا النسيان الذى ظل يخيم عليه لعدد من السنوات إلى عالم الوجود المتحضر .

وقبل عام ١٩٧٠ لم تكن فى البلاد سوى ثلاث مدارس وكنها للبنين تضم ٩٠٠ تلميذاً .. وكانت هناك مدرسة صغيرة للبعثة الأمريكية بها خمسون تلميذة وثلاث مدارس صغيرة أخرى للطائفة الحيدربادية فى مطرح ومدرسة تجارية فنية لموظفى شركة البترول ، وكانت كلها قطرة فى محيط الأمية .

وكانت الحاجة شديدة للتعليم من أقصى شمال البلاد إلى أقصى جنوبها ، وكان الناس من كل الأعمار وبعضهم من المتقدمين فى العمر نوعاً ما ، يسيرون أميالا للذهاب إلى المدرسة .

وبالتأكيد ، فإن التعليم هو العمود الفقرى للتنمية ، ثم هناك أيضاً أهمية الصحة ، والمواصلات ، والدفاع ، والموانى ، والمطارات ، والإسكان إلخ . وتلك قائمة لا تنتهى .

ولقد أعطى التعليم والصحة الأولوية القصوى . فبدىء فى تنفيذ مشروع لبناء ثلاث عشر مدرسة ومستشفى ، ثم بدأ العمل فيه فى الحال . وفى

عام ١٩٧٠ كانت هناك ثلاث مستشفيات فقط فى البلاد كلها ، اثنتان تديرهما البعثة الأمريكية وواحدة تديرها شركة البترول . كما كانت هناك عيادة ملحقة بالسفارة البريطانية ، وفى داخل البلاد لم تكن هناك غير عيادات صغيرة يديرها أشخاص مدربون كانوا يشنون حرباً بلا هوادة على المرض والجهل . وعندما زاد عدد المستشفيات كان هناك تركيز على تدريب الشباب العمانى ، فى الداخل والخارج فى مجالات الصحة كأطباء وممرضين ومفتشين صحيين ، ومساعدين للمختبرات .

وفى مجال التعليم كان الهدف الأول هو تعليم أكبر عدد ممكن القراءة والكتابة . ولذلك فإنه بالإضافة إلى ما فعلته وزارة التعليم فى مجال التعليم الرسمى فإن جميع الوزارات الأخرى أدخلت مشروعات التدريب المختلفة. كذلك لعبت القوات المسلحة دوراً هاماً ليس فى المجال الأكاديمى فقط ، ولكن أيضا فى مجالات علم الصحة وغيره . وفى الحقيقة قد تلقى الشعب دروساً فى التعليم ، فى المدارس والبيوت والخيام بل وتحت الأشجار .

كذلك تركز الاهتمام على الجيش والقوات الجوية . الرجال والإمدادات والطائرات الخ ، وهذا بالإضافة إلى كثير من قوائم الأولويات لمختلف الوزارات ، وقد انفقت ميزانيات الوزارات كلها ، وخاصة أنه لم تكن هناك مساعدات تأتى من الدول التى يعتمد أمنها على نتيجة الحرب فى ظفار ، ومع ذلك فقد زادت عدداً وقوة ، قوات السلطان المسلحة ، وقوات السلطان الجوية ، ويمكن لعمان اليوم أن تعتبر نفسها فى مركز قوى يسمح لها بحماية حدودها الوطنية ضد أى نوع من أنواع التدخل الأجنبى .

ففى مجال الإقتصاد ، تعلق عمان أهمية كبرى على تنمية الزراعة ، فعمان تعتبر دولة زراعية بعكس الدول المجاورة لها ، وتستثمر الحكومة عائد البترول فى القطاع الزراعى .

ويشمل ذلك تحسين الأرض المنزرعة ، وإقامة محطات تجريبية لإرشاد المزارعين ، وتنويع الحاصلات الزراعية . وتحسين الموارد السمكية ، واستخراج المعادن .

وفى مجال المواصلات تحقق الكثير فى شق الطرق ، وبناء الموانى والمطارات ومكاتب البريد ، وشبكات المواصلات التليفونية التى تخدم المصالح الوطنية والدولية .

وقد احتلت عمان اليوم مكانها كدولة هامة وسط دول العالم . وهى عضو بالأمم المتحدة ، والجامعة العربية ، ودول عدم الانحياز ، وكثير من المنظمات الدولية .

وتحمل الزراعة والثروة السمكية إمكانيات هائلة وبخاصة وأن ٧٠٪ من السكان — الذين يقدر عددهم بـ ١ر٥ مليون نسمة — يعتمدون فى معيشتهم على هذين القطاعين . وتعطى الحكومة أولوية كبرى لتنميتها على نطاق واسع . فالساحل العمانى يمتد مسافة ١٧٠٠ كيلومترا ، وتصدر عمان حالياً الأسماك لجاراتها . وقد حدث ذلك نتيجة لأول مشروع جرى تخطيطه لتصدير الأسماك على نطاق واسع . وللحكومة هدف بعيد المدى هو استيعاب طاقة البلاد لتصنيع الأسماك ، وإنشاء الأسطول التجارى العمانى . ولقد زودت الحكومة الصيادين بالمحركات الآلية لقوارب الصيد ، أماناً لهم فى أداء أعمالهم ، ودفعاً لطاقاتهم العملية فى الإنتاج وزيادة الثروة السمكية .

وبالنسبة للزراعة ، تهدف الحكومة إلى تحقيق اكتفاء ذاتى فى كثير من المنتجات الزراعية بقدر الإمكان .

وهناك هدف بعيد المدى أيضا وهو تصدير المنتجات الزراعية على نطاق واسع . وسوف يحظى محصول البلح — أهم المنتجات الزراعية

العمانية — باهتمام بالغ . إلى جانب السلع التقليدية الأخرى مثل الليمون وجوز الهند ولكن سوف يكون هناك تحول إلى التركيز على مجالات أخرى من المنتجات المربحة مثل الدواجن ، و القمح ، و الخضروات .

وما زال التصنيع الزراعى مقصوراً على مصنعين بطاقة إنتاجية تبلغ عشرة آلاف طن فى السنة ، وهما مصنع منتجات الألبان ، ومطحن الدقيق ، ويصدر فائض إنتاج كل منهما حاليا لدولة الإمارات العربية . ولا شك أن إنتاج هذه المشروعات سوف يخفض بقدر كبير من الواردات الزراعية . وفى الأجل الطويل وعندما يتم التغلب على المشكلات الراهنة . فإن الزراعة وصيد الأسماك سوف تكونان عماد الدخل أكثر مما يمثله البترول و المعادن .

وفى مجال الصناعة فإن المشروع الذى يعمل الآن على نطاق واسع هو مصنع الأسمنت .

ويوجد مشروع آخر يعمل الآن ، هو خط أنابيب الغاز الممتد من حقول البترول الشمالية إلى الساحل ، وسوف يكون مصنع الأسمنت من أكبر المستفيدين منه لأنه يستخدم الغاز . كما أن هذا الخط يغذى محطة تحلية مياه البحر ، ومحطة الكهرباء فى منطقة العاصمة . وربما يتم مد خط الأنابيب أيضا شمالا إلى جبال صحار لتزويد منطقة مناجم النحاس بالطاقة .

كما تم إقامة عدد كبير من المشروعات الأصغر حجماً فى نفس الوقت ، تقوم بعمل صناعات خفيفة ، هدفها إنتاج سلع بديلة للواردات خاصة فى مجال الإنشاءات . ومنها مصانع الأثاث ، ومنتجات الألومنيوم ، والمشروبات الخفيفة ، و الغازات الصناعية .

ومن المتوقع أن تمضى عمان فى الأجل الطويل فى تنفيذ مشروعاتها المؤجلة فى مجال البتروكيماويات ، مثل مصنع المخصبات الزراعية ، خاصة إذا توافر لها المستوى المرتفع من الدخل عن طريق إضافة دخل المعادن إلى

الدخل الحالى للبترول . ومن المرجح أن يتجه التركيز إلى الصناعات ، اعتمادا على مصادر عمان المعدنية غير المستغلة ، فهناك النحاس ، والاسبستوس .

وعمان مشغولة للغاية بمحاولة اكتشاف مزيد من البترول من أجل المحافظة على المستوى العالى للتنمية . ورغم الإنجازات الكبيرة التى تحققت فى مجال التنمية ، إلا أنه ما زال هناك الكثير لإنجازه بالنظر إلى الاحتياجات العديدة للبلاد . وقد بدأت مصادر دخل الحكومة تتسع ، لكن ما زال الاعتماد الأساسى على البترول .

وكان إنتاج عمان من البترول قد هبط من ١٣٩ مليون برميل سنوياً فى عام ١٩٧٦ إلى ١١٨ مليون برميل فى عام ١٩٧٨ ، لكن الحكومة متفائلة بإمكان إنتاج كميات أكبر فى الثمانينات .

وتعتبر الثروة المعدنية الجانب الأكثر إشراقاً بالنسبة لمستقبل الاقتصاد العمانى ، بجانب الزراعة والثروة السمكية . وتقدر الاحتياطيات الحالية بـ ١٢ مليون طن ، لكن عمليات التنقيب المقبلة سوف تكشف عن مستودعات أكبر . وقد عثر على مستودعات الكروم ، والرصاص ، والزنك ، والنيكل ، وخام الحديد ، ومعادن أخرى . وعثر فى الجبال القريبة من صحار على مستودعات للمنجنيز وهناك بشائر العثور على الفحم فى هذه المنطقة أيضاً .

وفى ظفار اكتشف المنقبون الألمان الغربيون مستودعات للفوسفات .

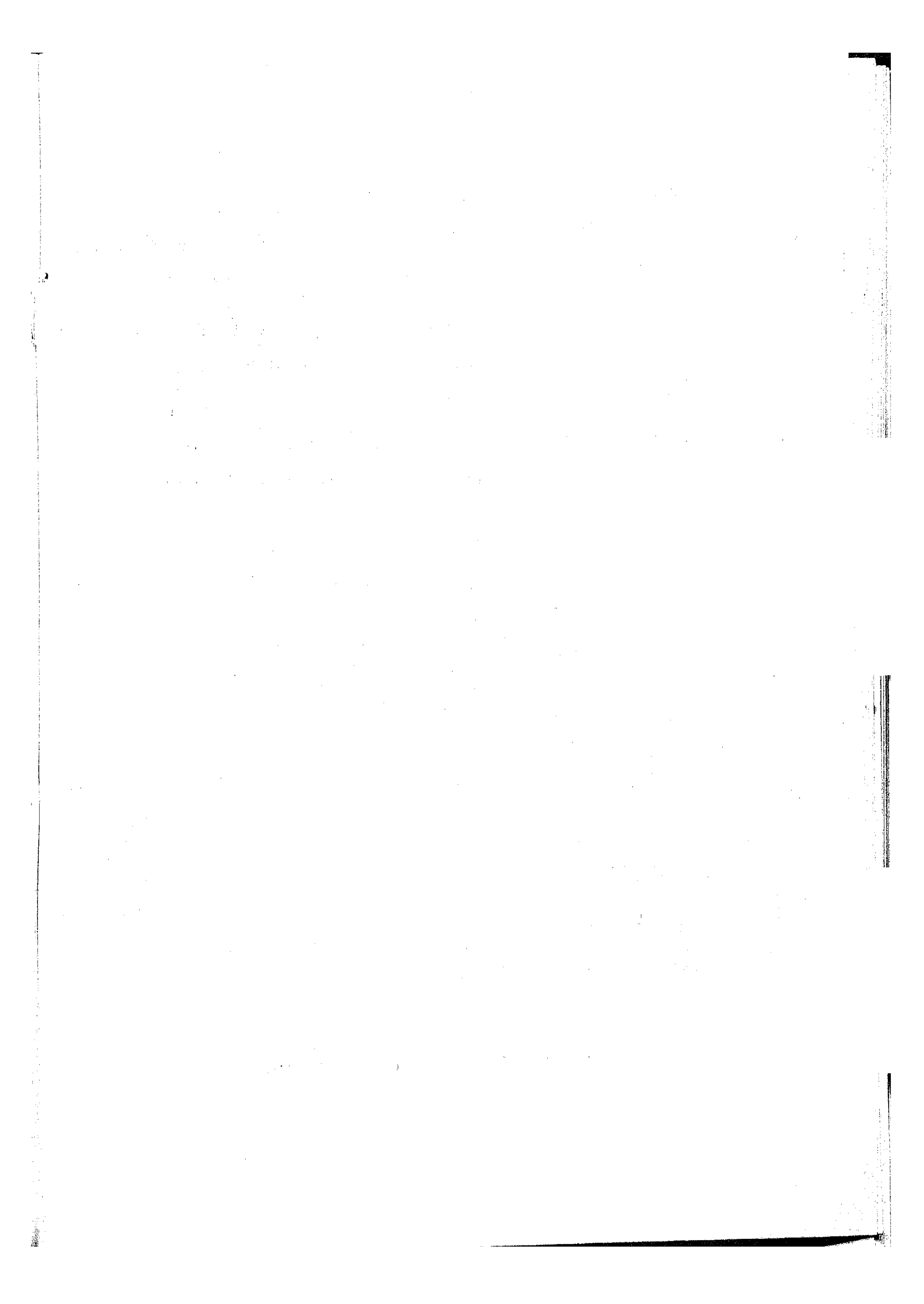
وهناك اعتقاد كبير بأن عمان ستصبح دولة رئيسية فى إنتاج المعادن فى الثمانينات . وإذا استطاعت عمان أن تنتج الكمية المقدرة وهى ٣٠٠٠ طن من النحاس يوميا فى عام ١٩٨٣ ، فإنها ستصبح بذلك من أكبر الدول المنتجة للنحاس مثل زامبيا وشيلى .

« وليس من شك فى أن الروح الدافقة الوثابة ، والنظرة الواعية الصائبة لجلالة السلطان قابوس المعظم لابد لها أن تؤتى ثمارها الطيبة ، خيراً وفيرا ، ونهضة شاملة للشعب العمانى .

وإن التاريخ ليسجل للشعب العمانى نشاطاً محموداً ومذكوراً فى شتى المجالات ، يمتد إلى منابت الحضارة الإنسانية الأولى ، وتتفرع غصونه على مدى العصور ، مما يؤكد أنه للعمانيين طاقات موفورة مذخورة ، ستنبثق منها حتما وثبات قوية مضيئة فى مسيرة النهوض الحضارى التى يقودها بفتوة ونشاط جلالة السلطان قابوس آل سعيد » .

* * *

راجعه وأشرف على طبعه الأستاذ عبد المنعم عامر



ثبت المراجع

بالإضافة إلى معلوماتى الخاصة وخبراتى فقد رجعت إلى عدد من المصادر التالية :

— تحفة الأعيان تأليف الشيخ سالم بن عبد الله بن حميد السالمى

— مذكرات الأميرة سالمة، ترجمة عبد المجيد حسيب القيسى سنة ١٩٧٤

— مسقط وعمان تأليف ، إيان سكيت سنة ١٩٧٤

— الحكم البرتغال فى شرق إفريقية ، تأليف جاستوس استراندوز ، سنة ١٩٦١

— موجز تاريخ الساحل الشرقى لإفريقية، تأليف ل. و. هولنج سوورث سنة ١٩٢٩

— العقيدة وقلعة المسيح، تأليف مبارك بن عاطى الحناوى ، سنة ١٩٥٠

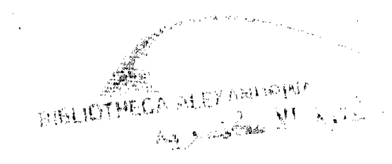
— البحث عن الماضى ، تأليف كويزى ماك كاستر مارتن ، و ، اسموند برادلى مارتن ، سنة ١٩٧٣

— تيسيط تاريخ شرق إفريقية، تأليف هـ برتن ، و ، ب. ج.ج وبلى ، سنة ١٩٦٣

— عمان فى تقرير خاص ، مقدم من ميد سنة ١٩٧٦

وبالإضافة إلى ذلك رجعنا إلى تقارير عديدة كتبت عن الصحوة السياسية ونتائج الانتخابات التى أجريت فى زنجبار عند إعداد مخطوطة هذا الكتاب .

محتويات الكتاب



رقم الإيداع بدار الكتب ٢٥٤٢ لسنة ١٩٨٠

مطابع سجل العرب
٩ شارع عماد الدين - ت ٩٣٢٧٠٦

